خالد محمد خالد

بين يدى عمر







بين يدي عُمَر

خالد محمد خالد

بين يدى عُمَر

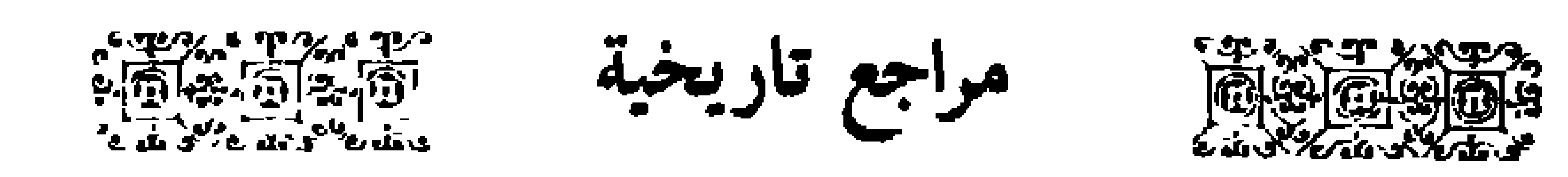


دار المعارف

الطبعة السابعة

« ظهرت الطبعة الأولى بالقاهرة ١٩٦١ »
« مسجلة بدار الكتب المصرية »

الناشر : دار المعارف — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج. م. ع.

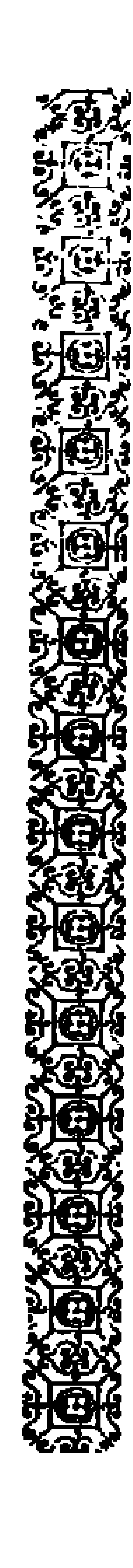


مراجع تاريخية

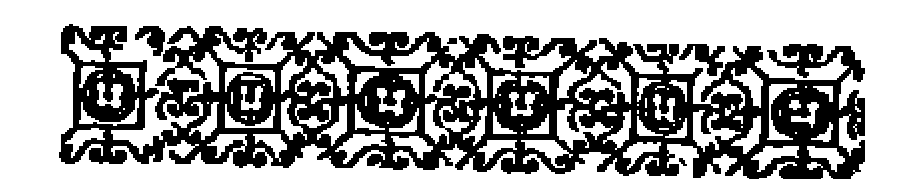
الـكامل : للعلامة ابن الأثير

الطبقات الكبرى : » ابن سعد

أخبار عمر : للأستاذين { علي الطنطاوي / ناجي الطنطاوي }



أيأذن أمير المؤمنين..؟



فى هذا الكتاب

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

لست أكتب تاريخاً لعمر

ولا أَزيد الناس معرفة بعظمته وشأوِه . .

ولا أُزكّي على الله نفسي بالكتابة عن رجل أَحبَّه الله واصطفاه . .

إن المحاولة التي أنا بصددها ، أكثر تواضعاً من هذا كله . .

إنى أُصغي إلى أمير المؤمنين ، لا أكثر . . وأتطلَّع إليه ، لا أقل . .

وفى دروب التاريخ سنحاول – القراء وأنا – أن نلتقى بالرجل الذى لم تُسعدنا المقادير باللقاء معه فى دروب المدينة . حيث كانت سجاياه وعَظمتُه تملأ الزمان والمكان بما لا عينٌ رأت ولا أُذن سمِعت من عدالة الحاكمين ، وزهد القادرين ، وإخبات الناسكين ،وقوة الوُدَعاء الراحمين ، ووداعة الأقوياء المتقين . ! !

أجل ؛ هذا ما نحاول فى هذه الصفحات بلوغَه . . أنْ نعيش لحظات فى رِحاب عمر ، ونأخذ من المشهد المكتوب عِوَضَ ما فاتنا من المشهد الحيّ . ونُلقيَ السمع والبصر والفؤاد بين يدى هذا القويّ الأمين . والمعلم الذى ليس له

بين المعلمين نظير ، ونقضى فى مَعِيَّته لحظات ترفع من قدر حياتنا .

* * *

و « مَعِيَّةُ » أمير المؤمنين ، ليست مثل « مَعِيّات » غيره من الأمراء ، والحاكمين .

إنها شيء مختلف جداً . . فلا مكان فيها لأطايب الطعام ، ومَناعم الشراب ، ومَباهج الحياة . . لا مكان للفُرُش المرفوعة ، ولا للأكواب الموضوعة ، ولا للنمارِق المصفوفة ، ولا للزَّرَابِىِّ المبثوثة .

لا مكان للراحة . . لا مكان للزَّهو . . لا مكان للزُّلفَى . .

من أجل هذا ، كان الاقتراب من هذه « المعِيَّة » رهيباً ، بقدر ما هو حبيب إلى النفس ، وبقدر ما يُفضى إليه من شرف عظيم .

و « عمر » من الطراز الذى تغمرك وأنت تقرأ تاريخه المكتوب كلُّ الهيبة التى تغمرك وأنت تجالس ذاته وشخصه .

والمشهد المسطور من تاريخه ، لا يكاد يختلف عن المشهد الحى إلا فى غياب البطل عن حاسة البصر . .

أجَلْ . . عن حاسة البصر وحدها . . أما الأفئدة . . أما البصيرة ، فتحسّ وهى تطالع سيرة عمر أنها تُعايشه ، وتجالسه ، وترى رَأْىَ العين جلال الأعمال ، ومَناسِكَ البطولات التى يتناولها بيد أستاذ عظيم ، جدّ عظيم . .

* * *

ولكن على الرغم مما تفرضه صحبة « عمر » من حرمان وشظَف . . فليس على ظهر الأرض بهجة ، ولا متعة ، ولا نعمة تفوق مباهج ومناعم هذه الصُّحبة بحال . . !

فالرجل الكبير في بساطة ، البسيط في قوة ، القوى في عدل ورحمة لا يستريح ولا يترك الذين معه يستريحون ، ولكنه يمنحهم بدلا من الراحة المفقودة ، .أعظم ما في الحياة من سؤدد ، وغبطة ، وتفوّق

هذا هو أمير المؤمنين ، الرجل الذى أنجبته البشرية ورباه الاسلام .

هذا هو الحاكم المؤمن الذى إذا ذُكر رؤساء الدول والحكومات منذ فجر التاريخ الإنسانى إلى يوم الناس هذا ، كان أعظمهم ، وأبرَّهم ، وأزكاهم – من غير مبالغة – أية مبالغة . . ! !

هذا هو الناسك الذى تفجَّر نُسكه حركة ، وذكاء . . . وعملا . . وبناء . .

هذا هو المعلم الذى صحح مفاهيم الحياة ، وأفرغ عليها نوراً من روحه ، وكساها عظمة من سلوكه ، وكان للمتقين إماماً . . ! !

* * *

تُرى ماذا يذكر التاريخ اليوم من نبئه العظيم ، وبم يَلهج الناس من سيرته الفاضلة ؟ ؟

هل يذكرون فتوحاتِه على كثرتها . . . ؟ ؟ هل يذكرون انتصاراته على روعتها . . ؟

إن سلوك أمير المؤمنين ، يشغل التاريخ ويشغل الناس عن كل شيء سواه .

* ودائماً ، وأبداً ، تُطلّ على الحياة صورة ذلك الإنسان الإلهى الذى يجرى فى وقت الحر القاتل وراء بعير من أموال الأمة مخافة أن يَندَّ ويضيع ، فيحاسبه الله حساباً عسيراً . . ! !

* أو الذى يصطحب زوجته فى الهزيع الأخير من الليل حاملا على

كتفيه وفى يديه جراب دقيق ، وقربة الماء ، ووعاء السمن ، حيث تتولى زوجته أمر سيدة غريبة أدركها المخاض وحيث يجلس هو خارج الكوخ يُنضج لها طعام الوالدات . . !

* أو الذى يتأخر عن خطبة الجمعة ، ثم يجىء مهرولا فى بُردة بها إحدى وعشرون رقعة ، تحتها قميص لم يجفّ بعد من البلل ، ثم لا يكاد يصعد المنبر حتى يعتذر للناس عن تأخره فيقول . « حبَسنى عنكم قميصى هذا . . كنت أنتظره حتى يجفّ ، إنه ليس لى قميص غيره . . ! ! »

* أو الذى يستقبل هدية من الحلوى أرسلها إليه عامله على أذربيجان فيسأل الرسول الذى جاء بها : أوَ كُلُّ الناس هناك يأكلون هذا . . فيجيبه الرجل قائلا : كلا يا أمير المؤمنين ، إنها طعام الصَّفْوة . . ! ! فيختلج عمر ويقول للرجل : « أين بعيرك . . احمل هديتك وارجع بها إلى صاحبها وقل له : عمر يأمرك ألا تشبع من طعام حتى يشبع منه قبلك جميع المسلمين . . ! ! »

* * *

هذا هو عمر فى ذاكرة التاريخ ، وفى ضمير البشرية .

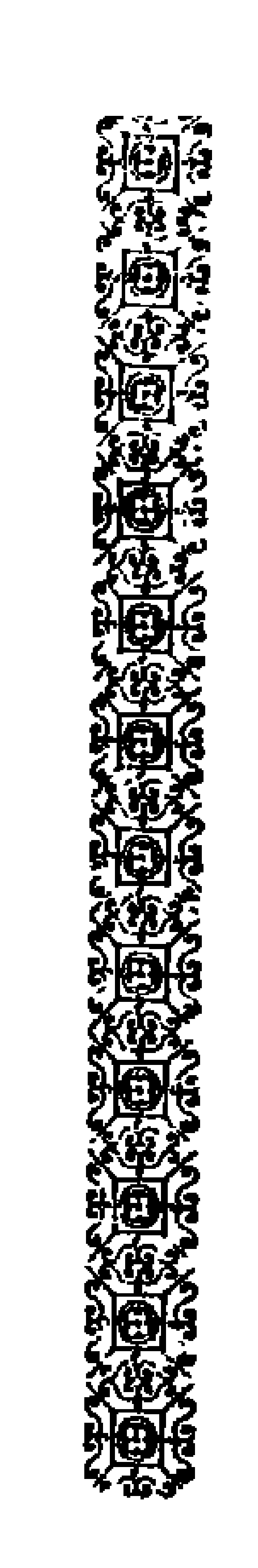
هذا هو منارة الله فى الدنيا ، وهديته إلى الحياة .

وعلى مائدته الخالية من أطايب الطعام ، الحافلة بأطايب العظمة ، سنقضى أسعد وأرغد لحظات حياتنا . . ! ! !

خالد محمد خالد

الفصل الأول

ليوسّعنّهم خيرًا



كانت مكة تُودع ضيوفها الذين وفَدوا عليها من شتَّى بقاع الجزيرة ليشهدوا مهرجان « عكاظ » حيث تزهو القبائل بشعرائها المتفوقين ، وحيث تزدان حَلْبة المصارعة بفتيان قريش الأشداء يعرضون ألعابهم فى فن عظيم .

كانت مكة تودع أولئك الأضياف الذين شدُّوا الرحال راجعين إلى بلادهم ، ونُجوعهم – عدا نفر قليل منهم استهواهم البلد الحرام ، فتهيبوا الظَّعْن ، وآثروا المكث .

من هؤلاء النفر ، ذلك الشيخ الذى يقطع الطريق وَهْناً ، مُيمماً وجهه شَطْر دار الندوة ليقضى بها ساعة الأصيل مع رفاقه فى الشيخوخة والذكريات . . !

وإنه لَماضٍ فى سبيله ، إذ لقيه فى الطريق أعرابى قريب العهد بمكة يعمل راعياً لدى واحد من سادات قريش . .

ولا يكاد الفتى يبصر الشيخ أمامه حتى تتحدر الكلمات من بين

شفتيه فى حَمّيَةٍ وعجَلَة .

– هل علمت النبأ العظيم يا أخا العرب .

– أى نبأ يا بنى . . . ؟

– ذلك الرجل الأعْسَر اليَسَر . .

ويتساءل الشيخ قائلا :

– الذى كان يصارع فى سوق عكاظ . . ؟

– أجل . . . هو . .

– ما باله يا فتى . . ؟

– لقد أسلم ، واتبع محمداً . .

ويُفيق الشيخ من الدهشة ، ويقول وقد كست وجهَه حكمةُ السنين :

– « أمَا والحق ، لَيُوسِعَنَّهم خيراً . . أو لَيوسِعَنَّهم شراً » . . ! !

* * *

أما الأعْسَر اليَسَرَ الذى كان يُصارع فى سوق عكاظ ، فهو عمر . .

وأما نبوءة العربى ، فقد جاءت كفَلَق الصبح ، وضوء النهار .

ومن ذلك اليوم ، لم يعد الأعسر اليَسَر . . « عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى » ، من بنى عَدِىّ . . لم يعد ذلك الذى يُصارع الأشداء فى سوق عكاظ ، بل صار « الفاروق عمر » ، الذى سيصارع الباطل فى جزيرة العرب ، أَوَّلَ النهار . . وفى كل الدنيا ، آخِرَه . .

سيكون الرجل الذى يملأ أرض الناس عدلا ، وأمْناً ، ورحمة ، وهُدى . .

سيكون « المعلِّم » الذى يَبلُغ الرشد الإنسانى على يديه رُشدَه . .

و « الأستاذ » الذى تجلس الدنيا عند قدميه . . !

أجل . . سيكون الإنسان الذى يرفع الله به من قَدْر البشَر ، وقَدر الحياة .

* * *

« لَيوسعنهم خيراً ، أو لَيُوسعنهم شرًّا » . . ! !

كيف أدرك الشيخ العربى ، مصاير الأمور على هذا النحو السريع الفَطِن . . ؟

الحق أن الذى قُدر له أن يرى « عمر » فى شبابه ولو رؤية عابرة ، قادر على أن يردد نفس النبوءة ، ويستشرف الغد الذى استشرفه الشيخ فى غير عَناء .

« فعمر » ، ذلك الرجل القوى ، المجدول اللحم ، المشرب بالحمرة ، الغليظ القدمين والكفَّين ، العريض المنكبين ، الفارِهُ الشامخ العملاق ، الذى لم يَسِر قط مع قوم إلا كان أعلاهم رأساً من فَرَط طوله .

الرجل الذى كان كما نَعتُوه : « إذا تكلم أسمع وإذا مَشَى أسرع ، وإذا ضرب أوجع » .

« عمر » الذى لم يَخف قط فى حياته أحداً ، ولم يختلج جنانه الصامد أمام رهبة أو فزع .

« عمر» الذى ورث من طباع أبيه ، صرامة لا تعرف الوهْن ، وحَسْماً لا يُؤرجحه التردد ، وتَصميماً لا يقبل أنصاف الحلول .

« عمر » هذا . . من اليسير جداً استكشاف حقيقته ، وقراءة دخيلته والتنبؤ بمصاير الأمور بين يديه ، فإما أقصى اليمين ، وإما أقصى اليسار .

إنه أبعد الناس عن ازدواج الشخصية ، وتعددها . .

ومركز الثقل فيه ، لا تتناوَبه أشتاتُ نفس مُوزَّعة ، ولا تميل به أهواء متنافرة ، إنما تحتشد به شخصية متَّسقة حافلة .

فحيث يوجد « عمر » توجد كل شخصيته ، وكل إرادته ، وكل منهجه .

لا ينقسم على ذاته أبداً . . ولا يضع إحدى قدميه هنا – وثانية القدمين هنـاك . .

إنه رجلٌ « جَمِيعٌ » تتحرك كل قُدراته فى دقة واتّساق . . يفوقان دقة الجيش المدرَّب واتّساقه . وليس لذرة واحدة فى كِيانه فرصة للتخلف . . أو للتلكُّؤ ، أو للنَّشاز . . !

إنها طبيعة فذَّة قلَّما تتكرر ، وقلما يكون لها فى الأعداد الهائلة من البشر نظير .

ولقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام يدرك عظمة الطبيعة البشرية التى رُزِقها « عمر » . . وكان يعرف ما تنطوى عليه من أصالة واقتدار . . كما كان يعرف ما يتمتع به « عمرو بن هشام » من جاه ونفوذ .

من أجل هذا دعا ربه الكبير أن ينصر الإسلام بأحب الرجلين إليه – « عمر بن الخطاب » ، أو « عمرو بن هشام » . .

ولقد ربح الإسلام أحبَّ الرجلين إلى الله ، وكان « عمر بن الخطاب » صاحب الفطرة القوية السويَّة الجيَّاشة . . . ألقى ثقله كله فى كِفَّة التوحيد ، على حين ألقى الآخر ثقله فى كِفَّة الشرك . ولكن مصير الميزان تقرر فى نفس اللحظة التى أصبح فيها « عمر » قوة فى إحدى كفتيه ، واستبانَ غَدُ الإسلام كضوء الفجر منذ قال « ابن الخطاب » : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » . . !

يقول عبد الله بن مسعود : « ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر ، كان إسلامه فتحاً ، وكانت هجرته نصراً ، وكانت إمارته رحمة ، ولقد رأيتُنا وما نستطيع أن نصلى بالبيت حتى أسلم عمر » . . ! !

* *

هذا العنفوان الوثيق فى شخصية « عمر » . كان يبدو كما لو كان تطرفاً ، وتزمُّتاً، وغِلْظة . .

فى الجاهلية ، كانت مُحادَّته للإسلام ، تكاد وحدها تعدل أذى قريش . . وكان تشبثه بموقفه يَدحَض أى أمل فى عُدوله عنه ، حتى لقد صوَّر أحد المسلمين يومئذ يأسه من إسلام « عمر » بقوله : « إنه لن يسلم حتى يُسلم حِمار الخطاب » . . ! !

وفى الإسلام ، صارت مُحادَّتُه للوثنية تكاد تعدل وحدها مقاومة الإسلام بأسره ، وصارت صرامته العادلة العاقلة مضرب الأمثال ، حتى لقد كان الوحيد بين الصحابة الذى يُكثر من مناقشة رسول الله ، والذى يقترح أحياناً على الرسول ، فيُمضى رسول الله ما اقترح ، ويَسن ما ارتأى . وكان شديدَ الوطأة على خصوم الإسلام بصورة تفرَّد بها عمن سواه .

بَيْد أن ذلك لم يكن من « عمر » تطرفاً ، ولا تزمتاً ، ولا قسوة . إنما كان تفوُّقاً . .

ذلك أن الطبيعة التى كانت تحتشد مَواهبها وُقدْراتها على هذا النَّسق الفذِّ الذى توفَّر « لعمر » ، لا يكون لصاحبها الخيار إلا فى مستوى هذا التفوق المهيمن العميم .

وهكذا كان « عمر » . .

رجل مُزوَّد بطبيعة مشحوذة قوية ممتلئة . . طبيعة مستقيمة القصد ،

شديدة الأَسْر ، سَواء فى ضلالها وهُداها . .

وهى إذا اتخذت موقفاً ، تبلغ فيه المدَى . لا استجابة لنزعة الغُلوّ ، بل تحقيقاً لإمكاناتها الحافلة ، وتعبيراً تلقائيًّا عن تفوُّقها وامتلائها . .

إن ثَمَّةَ فارقاً كبيراً بين التفوق والتطرف . .

الأول ، يشبه النمو الطبيعى .

والثانى. يشبه مرض نمو العظام .

الأول تثمره خلايا حيّة عاملة ، وطبيعة سوية نامية ، والثانى عَرَض من أعراض العلة والسقم . .

والتفوق ، قوة عادلة تتضمن الحكمة ، ولا تستعلى على الخير ، أو تتوارى من الحق . .

وهكذا كان الذى مع « عمر » التفوق ، لا التطرف . . والقوة ، لا القسوة . .

وإن الظروف التى أزْجَتْ إسلامه وأحاطت به لَتكشف جوهر طبيعته ، وتوضح هذا أوضح بيان . .

* * *

ذات يوم لَاهِب ، خرج من داره حاملا إصراره الحَرُور ، وسيفه الجسُور ، مَوَلياً وجهه شطر « دار الأرقم » حيث كان الرسول ونفر من أصحابه المؤمنين يذكرون الله هناك ، ويعبدونه .

وفى الطريق يلقاه « نُعيم بن عبد الله » فيرى ملامحه تتفجر بأساً ونقمة ، فيقترب منه فى وَجَل ويسأله :

— إلى أين يا « عمر » . . ؟

فيجيبه : « إلى هذا الصابئ الذى فرَّق أمر قريش وسفَّه أحلامها ، وعاب دينها ، وسب آلهتها فأقتله » . .

ويَذهل « نعيم » عن إحساسه بالموقف ، وبالخطر الذى ينجم عن معارضته لعمر ، فيقول له :

– « لبئس السعى سعيك ، وبئس المشَى مَمشاك » . . !

ويخشى « عمر » أن يكون « نعيم » قد أسلم ، فيقول له :

– « لعلك صبأْت . . . إن تكن فعلتَ فواللّاتِ والعُزّى لأَبدأَنَّ بك » .

و « نعيم » يعرف تماماً أن « ابن الخطاب » يعنى ما يقول ، فيُنهى الحِوَار بعبارة تلوى زمام « عمر » ، إذ لا يكاد يحتمل وَقْعَها الشديد :

– « ألا فاعلم يا عمر أن أختك وزوجها – سعيد بن زيد – قد أسلما ، وتركا دينك الذى أنت عليه » . .

– أخته . . . ؟ ؟ فاطمة بنت الخطاب . . ؟ ؟

مالَه ولدار الأرقم إذن ، وقد اقتحم الخطر داره هو وعَرِينه . ؟

وهكذا ، أغذَّ السير إلى دار خَتَنِه « سعيد » . .

* * *

فى جوْف الدار كان « سعيد بن زيد » ، وزوجته « فاطمة بنت الخطاب » و « خبّاب بن الأرَتّ » ، وملء أيديهم صحيفة فيها من وحى الله آيات يتلونها ويتدارسونها .

وقَرع الباب قرعاً رهيباً . .

وقيل : مَن ؟ . قال : عمر . .

أمّا خباب ، فسارع إلى مخبأ قَصِىٍّ فى الدار ، سائلا الله حفظه وغَوثه . . ! !

وأما أخت « عمر » وزوجها ، فقد استقبلاه لَدَى الباب يغشاهما ذهول المفاجأة ، ولم تنس بنت الخطاب فى هذه الغمرة الداهمة ، الصحيفة الكريمة التى بها آى الله فخبأتها تحت ثيابها .

قال « عمر » والهول ينقذف من عينيه : ما هذه الهينَمة التى سمعتُ عندكم . . ؟

أجابا : لا شىء ، إنها نجْوَى وأحاديث . .

قال لهما : سمعت أنكما صَبَأْتُمَا . . .

قال سعيد : « أرأيت يا عمر إن كان الحق فى غير دينك » . ؟ ؟

ولم يمهله « عمر » حتى يتم حديثه ، فوثب عليه فى عنفوان لَجِب ، وأخذ برأسه يجرّه ويلويه ، ثم ألقاه أرضاً ، وجلس فوق صدره . . وحين تقدمت أخته لتدافع عن بَعْلها أصابتها منه لطمة أدْمت وجهها فصاحت به وكأنها بُوقٌ سماوى يُدوِّى ويصلصل :

— : « يا عدو الله ، أتضربنى على إيمانى بالله الأحد ؟ ألا ما كنت فاعلاً فافعل ؛ فإنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله » . . !

والآن ، انتبهوا جيداً ، فإن اللحظة الحاسمة تدق ، مُؤْذِنة بالتحول وكاشِفةً عن الجوهر النقى القوى الذى صُنعت منه فِطرة هذا الرجل الكبير . فبينما هو فى بأسه الشديد ذاك ، يجابهه الحق عالى الصيحة ، فيلين له « عمر » ويتخشَّع . .

ذلك أن الكلمات المندلعة من إصرار أخته كانت تحمل كل رنين الصدق .

هذا الرنين الذى يعرفه ويميزه من له فطرة كفطرة « عمر » ، تماماً مثلما يدرك الفارس الأصيل المجرب ، أصالَة الخيل من صهيلها . . ! !

ولو كانت قوة « عمر » قوة عناد وقساوة ، لتمادت فى ضراوتها ولبلغت من الموقف ما تريد .

أمَا وهى قوة تفوّق وبطولة ، فقد استجابت من فورها لهذا الجلال المتبدى أمامها ، لهذا الرأس العزيز المرتفع ، رأس « فاطمة بنت الخطاب » المؤمنة بالله وبرسوله . . ولهذه الكلمات المتوهجة بنور الحق الصادحة برنين الصدق .

وفجأة ينهض من فوق صدر « سعيد » . ويبسط يده الضارعة إلى أخته ، سائلا إياها أن تعطيه الصحيفة التى رآها تبرز من تحت ثيابها :

— هات هذه الصحيفة ، لأنظر ما فيها .

وتجيبه أخته : «كلا ، إنه لا يمسُّه إلا المطهَّرون ، اذهب فاغتسل وتطهر »

ويمضى « عمر » كالأنفاس الوديعة الهادئة ، هذا الذى كان من لحظات إعصاراً يُدمدم . . ويعود ولحيته تقطر ماء ، وتعطيه أخته الصحيفة ، ويقرأ :

« بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

« طه . مَا أَنْزلْنا عَليكَ القُرآن لِتشْقَى ، إلاَّ تَذْكِرةً لِمَنْ يَخْشَى . تَنْزِيلاً مِمَّن خَلَقَ الأَرْضَ والسَّماواتِ العُلَى . الرَّحْمنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوى . لَهُ مَا فى السَّماواتِ ومَا فِى الأَرْضِ ، ومَا بَيْنهمَا ومَا تَحْتَ الثَّرَى . وإنْ تَجْهَرِ بالقَوْلِ فإنَّه يعْلَمُ السِّرَّ وأَخْفَى . اللهُ لَا إلٰهَ إلاَّ هُو لَهُ الأَسْماءُ الحسْنَى » .

ثـم يتابع التلاوة فى خشوع وتَبتُّل :

« إنَّنى أَنَا اللهُ لا إلٰهَ إلاَّ أَنَا فاعْبُدنى وَأَقمِ الصَّلاةَ لِذكْرِى ، إنَّ الساعة آتية أكادُ أخفيها لتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بما تَسْعَى ، فلا يَصُدَّنَّك عنها من لا يُؤْمِنُ بها واتَّبعَ هَواهُ فتردَى » . .

ويعانق عمر الصحيفة ثم يقبّلها . وينهض واقفاً ويقول :

« لا ينبغى لمن هذه آياته ، أن يكون له شريك يُعبد معه ، دلُّونى على محمد » !

وهنا يبزغ « خبَّاب بن الأرت » من مخبئه ، ويهرول صوب عمر صائحاً : « أبشر يا عمر ، فو الله لقد استجيب دعاء الرسول لك » .

ويتخذ عمر سبيله إلى الصفا حيث دار الأرقم ، وهناك بين يدى رسول الله عليه الصلاة والسلام يدخل فى الدين الحق ، ويكبر المسلمون تكبيرة تهتز لها مكة جميعاً . . !

* * *

فى مثل لمح البصر ، تمَّ هذا التحول الهائل العظيم ، وانتقل إلى أقصى رحاب الهدى ، رجل كان يقف فى أقصى مجاهل الوثنية .

والطبيعة القوية التى كانت تحتشد لتحرس آلهة قريش من زحف الدين الجديد ، وثبَت الآن وثبة فى الضياء إلى الجانب الآخر من أرض المعركة بكل بأسها وبكل قوتها ، إبَّان لحظة حاسمة أجاد توقيتها وأحسن إعدادها قدرٌ حكيم عليم . . !

لقد كان « عمر » يذود عن مقدسات الجاهلية ، يوم كان يؤمن أنها حق . .

وهو الآن وقد أسلم وجهه لله ، سيضع كل حياته وقوته فى خدمة دين ، آمن أنه الحق . .

ذلك أنه رجل يسير وَفْق إيمانه واقتناعه ، لا وَفق هواه . .

بيد أن إيمانه الأول وإيمانه الأخير لا يستويان .

فإيمانه القديم ، إيمان لا برهان له — برهانه التقليد الذى يحجب عن العقل ضوء الحقيقة ، ويحرم القلب من بهجة الصدق .

أما إيمانه الجديد فمعه برهان . أىّ برهان . . ! !

* إن الله الذى يعبده اليوم ليس من حجر ولا من مَدَر . إنما هو نور السماوات والأرض ، على كل شىء قدير ، وبكل شىء عليم .

* والداعى إلى الدين الجديد ، ليس واحداً من طراز أولئك الكهنة الذين يرتزقون بالأصنام ، ويستمدون سلطانهم من جهالة الناس وترويج الأساطير . . إنما هو « محمد » الذى لم يكن صدقه ولم تكن أمانته موضع ريبة أو شبهة طوال الأربعين عاماً التى قضاها بين قومه عابداً ، قانتاً ، طاهراً ، باهراً .

* وزملاؤه الجدد ، إخوانه فى هذا الدين ، ليسوا على شاكلة الآخرين الذين لا همَّ لهم سوى اللهو واللعب ، والميسر والضياع .

إنما هم رعيلٌ عظيم وَضع وِزره ، وَنَضاَ عن نفسه غرور الحياة الدنيا ، وتهيأ لرسالة كبرى وجهاد عظيم .

أجل . . إن الناس الذين هنا . مع محمد رسول الله ، قد وجدوا غرَضاً عظيما يَحيَوْن من أجله . . . . أما الآخرون الذين خَلَّفهم « عمر » وراء ظهره فيتكفأون على موائد الميسر يزدادون بها سفاهة ، أو يتحلَّقون حول الأزلام يستفتونها فى حظوظهم العاثرة . . . أو يطوفون حول أصنام من حجارة نحتوها بأيديهم ثم خرُّوا لها سُجَّداً .

هنا إيمان حق ، معه من الله برهان .

هنا إيمان يرفع الرءوس عالية . ويصل الإنسان بالله دون ما حاجة إلى وسيط أو شفيع .

وطبيعة كطبيعة « عمر » ، ترفض التبعية ، وتستعلى على الإذعان والرضوخ ، ليس لها مجال حيوى ولا مُناخ طبيعى إلا فى دين كهذا الدين حيث يقف الناس سواسية كأسنان المشط ، وحيث أكرمُهم عند الله أتقاهم ، وحيثُ يَعبِقُ الطهر ويتضوَّع الحق ، وحيث يتلو « محمد » آيات ربه فتتبدَّى من خلالها مَعالم الحياة الوافدة ، والمصاير الواعدة وتسمع الألباب فيها صلصلة الحقيقة ، وتجد الأفئدة معها بَرْد اليقين . . ! !

* * *

إن القوة نفسها والأصالة نفسها ، تعملان فى الطبيعة الفريدة « لعمر » بعد أن صار الإسلام له ديناً . ولكن هذه الطبيعة بعد الإسلام تتفوق تفوقاً بعيداً عنها قبل الإسلام . ذلك أنها وَجدت نُهاها ، وهُداها ، ولم يعد مجَالها تلك الأصنام الهامدة حول الكعبة ، أو تلك الشئون الضحلة لحياة مكة ، بل تعلقت هذه الطبيعة بالسماء وبالأرض جميعاً ، وصار موضوع نضالها ديناً يدرك بفطنته المشرقة أنه لن يقتصر على أرض الرمال ، والإبل ، والشِّعر ، بل سيَزْحف مشرِّقاً ومغرِّباً حتى يغمر العالمين . . ! !

من أجل هذا يبدأ القلق الذكى فى الطبيعة العمرية من أُولىَ لحظات إسلامه . فيقول لرسول الله عليه السلام :

— « أَلَسْنَا على الحق فى مماتنا وَمَحيانا . . ؟ ؟ » .

ويجيبه الرسول : « بلى يا عمر . والذى نفسى بيده إنكم لعلىَ الحق إن متم وإن حييتم » .

يقول « عمر » : « ففيم الاختفاء إذن . . ؟ والذى بعثك بالحق لَتخرجَنّ ، ولنخرجن معك » .

ويخرج الرسول والمسلمون معه فى صَفَّين . « عمر » فى صف ، و « حمزة » فى الصف الآخر

وبهذه الخطوات التى استحثَّها « ابن الخطاب » ، بدأ الزحف الطويل المبارك الذى استمر ألفاً وأربعمائة عام . ولا يزال . . ! !

إن الرجل الذى جاء منتضياً سيفه ليقتل رسول الله ، قد تحوَّل فى لحظات سعيدة إلى مؤمن بالله وبرسوله . فماذا عساه يفعل الآن . ؟

ما الامتداد الذى ستواصل طبيعته المسير فيه .

وما ردُّ الفعل الذى سيكيف وجهتها الجديدة . ؟

إن خواطره السريعة لَتُهِلُّ . . وكأنها تتحرك وَفق « خارطة » مفصلة قد وُضعت سَلفاً . .

ولسوف يُتابع عمر « المسلم » أداء المهمة التى بدأها عمر « الوثنى » ولكن فى مستوى أعلى ، وغاية أرفع . .

أجل ، لقد خرج من داره مُنتضياً سيفه قاصداً دار الأرقم ليصرع الباطل .

حسن . فليمض لغايته ، ولْيُواصل مهمته . . غير أنه الآن لن يصرع الحق الذى كان يتوهمه باطلا . . بل سيصرع الباطل الذى طالما توهمه حقاً . . !

سيصرع الباطل الذى هو باطل ، والذى انخدع « عمر » عن زَيْفهِ وحقيقته فترة من الزمان .

وإنه الآن ، وقد كُشِف عنه غطاؤه ، لَيُدوى بصوته الجسور :

— « والله ، لن أترك مكاناً جلست فيه بالكفر إلا جلستُ فيه بالإيمان » . . !

وإن مع طبيعته من الذكاء والمقدرة ما يجعلها مُهيأة للعمل دوماً ، واضعة عينيها على الهدف أبداً .

وهو لهذا وبهذا ، رجل لا يعرف أنصاف الحلول ، ولا ينام على الضيم لحظة من نهار أو مساء . . والضيم عنده أشمل وأعمّ من أن يكون رَهَقاً ينزل به ، أو خسفاً يُسامُه . . والضيم أيضاً أن يعجز عن تحقيق ذاته ، وإنجاز مشيئته ، وبلوغ الأمر الذى يريد

وهكذا رأى من الضيم أن يترك معالم جاهليته تعيش ولو خابية كابية ، ومن ثمَّ فإن آثار قدميه فى طرقات مكة حيث كان يَذرعُها مندداً بالإسلام ، ومتعقباً ذويه ، لا بد أن تذوب وتتلاشى فى خطواته الجديدة الثابتة التى سيذرع بها الطرقات نفسها مُسبحاً بحمد الله ومقدِّساً له . .

وكل مكان رفع فيه عقيرته لاهجاً بأصنام قريش . لابد أن يجلجل فيه بـ « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » . . ! !

أجل ، سيتعقَّب « عمر » كل حركاته ، وكل كلماته ، وكل خلجاته التى ظلت تحمل سخريته بدين الله مدى ستة أعوام ، منذ بدء الرسالة حتى يوم إسلامه . .

سيتعقبها فى كل مظانها ومَواطنها ، وسيضع مكان كل سيئة حسَنة .

سيقتلع جميع الأشواك التى ملأ بها طريق « محمد » وصحبه ، وسيغرس مكانها أزاهير . . سيزرعها حباً ، وتفانياً ، وسيشترى أَمْنَ هذا الدين بحياته ، جميع حياته . . ! !

إن طبيعته تنادى الزمان والمكان ، بل تُلغيهما إلغاء لتظل لها سيادتها وتفوقها . فإذا أخطأ عمر فى زمان ما ، فى مكان ما . . ثم أراد أن يصحح خطأه ، فليس يكفى فطرتَه الفذة النادرة أن تتجنب الخطأ . . بل هى تريد

اقتلاعه تماماً ، واقتلاع الزمان والمكان اللذين كانا للخطأ وعاء . .

ومن ثمَّ فهى تأبى إلا أن تعود للمكان نفسه ، ولو استطاعت لاستردَّت الزمان نفسه لتقول إن ذلك الخطأ لم يكن . ولا كان المكان الذى شهده ، ولا الزمان الذى احتواه . . ! ! !

من أجل هذا مضى إلى كل مكان جلس فيه بالكفر ، فجلس فيه بالإيمان – أكان ذلك كافياً . . ؟

لا ، فهناك عمل كثير وقدير ، سيواصله عمر حتى يحسَّ أنه قد طهَّر نفسه من كل آثام جاهليته . .

فهو يذكر أن تمسكه السالف بدين قريش ، كان من أهم أسباب الاضطهاد الذى لقيه الرسول وصحبه . . واليوم وقد آمن ، فلا بد أن يكون إسلامه عاملا حاسماً فى شدّ زِناد المقاومة الإسلامية .

أجل بالأمس كانت وثنيته من الأسباب التى حملت المسلمين وهم قلة ، على الفرار بدينهم إلى « دار الأرقم » حيث يعبدون الله خُفْية . .

واليوم ، لا بد أن يكون إسلامه عاملا حاسماً فى الجهر بالدعوة ونبذ التخفّى والمداراة

وإنه ليذهب إلى رسول الله فيقول :

– « بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، ما يحبسك ، فو الله ما تركت مجلساً كنت أجلس فيه بالكفر ، إلا أظهرت فيه الإيمان غير هائب ولا خائف – ألاَ إننا لن نعبد الله سراً بعد اليوم » . .

ويستجيب الرسول لرأيه ، وتخرج الدعوة من مَكْمنها إلى أرض الله الواسعة .

أفهل يكتفى عمر بذلك . .

كلا ، فلا يزال ثَمّة خطوة تبهر الألباب حقاً .

لقد تذكر « عمر » أنه بالأمس كان كفار قريش يأخذهم الزهو لأن « عمر » يَضرب بيده أصحاب « محمد » . . فليمنح المسلمين اليوم زَهواً مثله . . وهو إذا كان لن يستطيع الآن أن يعلو بقبضته رءوس صناديد قريش وظهورهم ، فليرفع من شأن العذاب الذى يلقاه ضعاف المسلمين بأن يشاركهم فيه ، وليأخذهم الزهو ، بأن « عمر » الجسور العملاق المهيب يُضرب مثلما يضربون ، ويُضطهد كما يضطهدون . . ! ! !

نعم . . لن يظلّ اضطهاد قريش وقفاً على « بلال » ، و « خبَّاب » ، و« عمار» ، و« صهيب » ، وإخوانهم من الفقراء والمستضعفين ، بل لا بد أن يَصْلاه معهم فتى الفتيان هذا ، الذى تسبقه هيبته ، والذى تنخلع أمام سطوته الأفئدة والقلوب .

لا بد أن يُضرب « عمر» كما يضربون ، وبهذا لا يصير ضربهم وتعذيبهم ذلة تكسر نفوسهم ، وتدغدغ كرامتهم ، وبهذا أيضاً يتم « لعمر » إسلامه ، إذ تتم له المساواة مع المسلمين فى دفع الثمن الذى يشترون به راية الله . . . ! !

هكذا فكَّر « ابن الخطاب » . . هكذا فكر صاحب الطبيعة القوية والفطرة السوية .

ولكنْ أنَّى له هذا ، وهو المرهوب الجناب إلى الحد الذى يجعل مجرد التفكير فى مُشَانأته مغامرة خاسرة . . ؟

إذا أراد « عمر » أن يكون الظافر المنتصر ، فلن يُعييه السبيل ، أما أن يكون المضروب المنهزم ، فهذه هى المشكلة الكبرى التى يحتاج الظفر بحلها إلى جهد كبير .

فمن الذى يجرؤ أن يضرب « عمر » فى قريش كلها . . ؟ ؟

ولكنَّ « عمر » قرر أن يرفع من قيمة العذاب الذى يلقاه إخوانه ، بأن يتعرض له ، ويأخذ نصيباً منه .

أجل ، لقد قرر وأراد ، وما دام قد أراد ، فلا بد أن يوجد الطريق . .

ويرسم خُطته ، ويبدأ جولته بأبى جهل ، فيذهب إليه فى داره ويقرع الباب ويخرج أبو جهل ليجد أمامه « عمر » ، فيغلق الباب دونه .

ويمر بأشراف قريش فى دُورهم متحدياً ، رجاء أن يخوض أحدهم معه معركة يخرج منها بلطمة فى صدره ، أو جرح فى وجهه « ! » ولكنهم جميعاً يتحاشَوْنَه ويتحامونه . .

وأخيراً يقرر أن يلقاهم عند الكعبة وهم مجتمعون هناك ، ولا يكاد يبلغهم حتى يستثيرهم بالحديث .

ولنصغ إليه يروى بقية ما حدث :

يقول رضى الله عنه

— « وثار إلىَّ الناس يضربوننى وأضربهم ، فجاء خالى وقال : ما هذا ؟ . . قالوا : ابن الخطاب ، فقام على الحِجْر وقال : ألا إنى قد أجرتُ ابن أختى ، فانكشف الناس عنى ، فكنت لا أزال أرى الذين يُضربون من المسلمين ، وأنا لا يضربنى أحد ، فقلت : ألا يصيبنى ما يصيبهم ؟ فجئت خالى ، وقلت له : جوارك مردود عليك . . قال : لا تفعل يا ابن أختى . قلت : بل هو رَدٌّ عليك قال : ما شئت فافعل ، فما زلتُ أَضرب وأُضْرَبُ حتى أعزَّ الله بنا الإسلام » . .

* * *

هذا السلوك الباهر الذى يتبدّى من « عمر » ، إنما ينبثق من طبيعة استوفَتْ كل عناصر الكمال ، والسؤدد . طبيعة لا يَزحَم إخلاصها للمسئولية شيء مَّا ، ولا يشغلها عن صقل جوهرها شاغل . .

والرجل الذى وقف موقفه هذا أوَّل إسلامه ، هو الذى سنلتقى به فيما بعد . أميراً للمؤمنين ، وجيوشه تثلُّ سلطان كسرى وقيصر فيصعد المنبر بعد أن دعا المسلمين للاجتماع ، ثم يقول :

– « أيها الناس : لقد رأيتُنى وأنا أرعى غنم خالاتٍ لى من بنى مخزوم نظير قبضة من تمر أو من زبيب » . .

ثم ينزل من على المنبر بين دَهَش المجتمعين وتساؤلهم . .

ويتقدم منه رجل لم يُطق على ما رأى صبراً ، وهو « عبد الرحمن ابن عوف » ويقول له : ما أردتَ إلى هذا يا أمير المؤمنين ؟ ؟

فيجيبه « عمر » :

– « ويحك يا ابن عوف ، خلوت بنفسى فقالت لى : أنت أمير المؤمنين ، وليس بينك وبين الله أحد ، فمن ذا أفضل منك . . ؟ فأردت أن أعرفها قدرها » . .

هذه طبيعة مستقيمة ، ليس بداخلها عِوَج ، ولا تصبر لحظة على ما يحول بينها وبين رؤية الحق واتباعه .

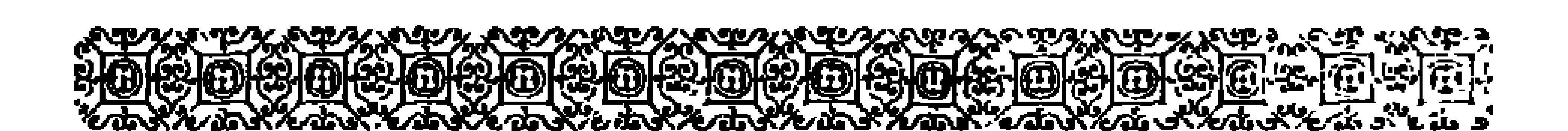
ولقد جعلت هذه الفطرة القويمة صاحبها رجل صدق عظماً ، لا يبغى على ما يعمل جزاء أو شُكوراً . . إنما يعبر عن طبيعته الممتلئة التى وضعها فى خدمة الله ، ونذَرها لدينه . .

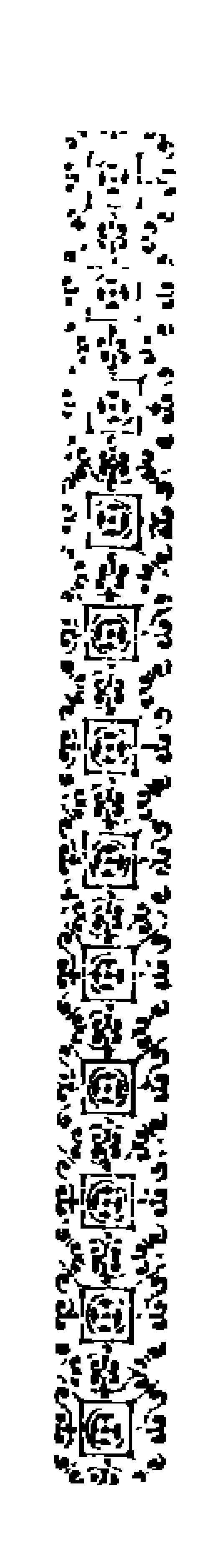
وكلما ملأت الرّحب بنشاطها الفذ ، وقدرتها الهاطلة . .

وكلما أخرجت من خَبْئها وثَرائها النفسى الذى لا ينفَد . .
وَكلما نسجتْ لله راية . وهدَّمتْ للشرك قلعة ، وأدَّت لإنسان حقاً . .
كلما فعلتْ هذا ، كان عمر سعيداً جِدَّ سعيد . . ! ! !

الفصل الثاني

ماتقول لربك غداً ؟





لا شيء يميّز الطبائع المتفوقة السوِيَّة ، مثل نَأْيِها عن الغرور . .

ولو كان ثمَّة رجل ، لا بد للغرور أن يتسوَّر حصونه المنيعة لفرط مزاياه وروعة أمجاده وانتصاراته ، لكان « عمر » . .

فهو يدخل الإسلام فى حفاوة بالغة من الرسول وصحبه .

وهو يرى كيف صار الإسلام ديناً جَهْوَرِيَّ الصوت ، صادح الكلمة ، فى اليوم نفسه الذى اعتنقه فيه .

ويبصر المسلمين الذين كانوا من قبل يَستخفُون من طغاة مكة ، يواجهون اليوم الأذى فى شُموخ ، ويرجُّون مكة بتكبيرهم بعد أن صار « لعمر » بينهم مكان .

ويرى رسول الله ينعته بالفاروق ، بعد أن فرق الله بإسلامه بين الحق والباطل ، وبين الملاينة والمُواجهة .

ويرى نفسه يقترح على رسول الله بعض آرائه ، فلا يوافقه الرسول فحسب ، بل يتنزل به الوحى ، ويصير قُرآناً يُتلى

وفيما بعد . يُضحى خليفة لرسول الله بعد أبى بكر ، وأميراً للمؤمنين ، تنفتح فى أيامه « بوابات » العالم لدين الله ، وتزحم راياته جوَّ السماء فى كل أفق .

كل هذا ، ألا يجد الغرور من خلاله ثغرة ينفذ منها ، إن لم يجد أكثر من الثغرات ؟ ؟ . . !

ومع ذلك ، فلا نكاد نعرف نفساً امتنعت على الغرور وتكسرت أمام حصونها المنيعة كلُّ محاولاته ، مثل نفس هذا الرجل الفرد ، « عمر » . !

فمن أين له هذا . . ؟

لا ريب أن لطبيعته واستعداده الفطرى الأثر الكبير الناجع .

ولا ريب أيضاً فى أن الطريقة التى اتصلت بها هذه الطبيعة بالله قد أفاءت عليها مَدداً لا يفنى ومقدرة لا تتلجلج . وعزوفاً كاملا عن كل ما فى الحياة الدنيا من غرور وزهو .

إن « عمر » نفسه يردُّ إلى الله ، وإلى الدين الذى انتهج نهجه كل ما معه من فضائل ، وهُدًى ، واقتدار . .

ولطالما كان يقول لإخوانه : « لقد كنا ، ولسنا شيئاً مذكوراً حتى أعزنا الله بالإسلام ، فإذا ذهبنا نلتمس العز فى غيره ذللنا » . .

فلننظر كيف كانت علاقة « عمر » بربه . .

لننظر كيف التقت طبيعة قوية . بنُسُك قوى ، لِيُنجبا الرجل القوى الأمين .

ولسوف نجد كل تصرفات « عمر » تسير وَفق إجلالٍ لله فريد

أجل ، إن « عمر » لَيخشى ربه خشية ، ويوقره توقيراً ، حتى إنه

ليكاد يذوب ويتحلَّل كلما هَوَّمَتْ حوله من بعيد ومضة من ومضات ربه ذى الجلال والإكرام .

وكان لا يَفْتأ يردد لنفسه هــذا اللحن المهيب : « ما تقــول لربك غــداً » . ؟ !

نعم . . « ما تقول لربك غداً » . . ؟

عبارة قد نتلوها نحن فى دعَةٍ ويُسر ، أما هو فكانت تزلزله زلزالا شديداً . . ! !

يقول الأحنف بن قيس :

— « كنت مع عمر بن الخطاب فلقيه رجل فقال : يا أمير المؤمنين انطلق معى فأعِدْنى على فلان فقد ظلمنى . . فرفع عمر درّته وخفق بها رأس الرجل وقال له : تَدعُون أمير المؤمنين وهو معرَّض لكم ، مقبل عليكم ، حتى إذا شغل بأمر من أمور المسلمين أتيتموه : أعدِنى . . أعدِنى . .

« فانصرف الرجل غضبان أسِفاً ، فقال عمر : علَىَّ بالرجل .

« فلما عاد ، ناوله مِخْفقَته وقال له : خذ واقتصَّ لنفسك منى .

« قال الرجل : لا والله ، ولكنى أدَعُها لله . . وانصرف ، وعدت مع عمر إلى بيته فصلى ركعتين ثم جلس يحاسب نفسه ويقول :

— ابن الخطاب . ؟ كنت وضيعاً فرفعك الله ، وكنت ضالا فهداك الله ، وكنت ذليلا فأعزك الله . . ثم حملك على رقاب الناس ، فجاءك رجل يَستعديك فضربته ، فماذا تقول لربك غداً إذا أتيته » ؟ ! !

* * *

ما تقول لربك غداً . . ؟

فى هذه العبارة ، يتمثل دين عمر ومنهاجه ، وتستمد حياتُه معاييرها وموازينها .

وفيها يتمثل جواز مروره إلى الدنيا ، وجواز مرور الدنيا بكل طيباتها إليه .

فأَمامَ كل لقمة شهية . . وأمام كل شربة باردة . . وأمام كل ثوب جديد تَسَّاقط دموعه . . تلك الدموع التى تركت تحت مقلتيه خطين أسودين من فرْط بكائه ، ويصلصل داخل نفسه هذا النذير « ما تقول لربِّك غداً » . . ؟

هذا هو جبَّار الجاهلية ، وعملاق الإسلام .

هذا هو أمير المؤمنين الذى تفتحت لأعلامه الخافقات أقطار الدنيا ، واستقبل الناس جيوشه كأنها البُشْرَيات .

هو ذا ، يؤمُّ الناس فى الصلاة فيسمع بكاءه ونشيجه أصحابُ الصف الأخير . . !

وها هو ذا يعدو ، ويُهرول وراء بعير أفلت من معطنه ، ويلقاه « علىّ ابن أبى طالب » فيسأله : إلى أين يا أمير المؤمنين ؟

فيجيبه : بعيرٌ ندَّ من إبل الصدقة أطلبه .

يقول له « على » : لقد أتعبت الذين سيجيئون بعدك . . !

فيجيبه « عمر » بكلمات مُتهدِّجة :

— « والذى بعث محمداً بالحق ، لو أن عَنْزاً ذهبت بشاطئ الفرات ، لأُخِذ بها عمر يوم القيامة » . . !

أكان « عمر » يخاف الله خوف العبد الذى يُرهبه قرع العصا ولَذع السياط . . ؟

لا . وإنما كان يخشاه خشية الحر الذى يرجو لربه وقاراً ، ويضرع إليه إجلالا وإكباراً ، ويخجل أن يلقاه بتقصير – أى تقصير . . ! !

وهذا هو نشيده دوماً :

– « كنتَ وضيعاً فرفعك الله ، وكنت ضالا فهداك الله ، وكنت ذليلا فأعزك الله ، فما تقول لربك غداً إذا أتيته » . . ؟ !

* * *

ولكن ، لم كل هذه الخشية الضاغطة . والحياء الداهم ؟

إن « عمر » قد تأدّب على يدى رسول الله أحسن تأدُّب ، وإنه لَيُتابع الرسول فى غير جَنَفٍ أو مَيْل ، وإنه لَذُو نسُك عظيم ، وإنه لَنسيجُ وحدِه فى ورعه ، وإخباته ، وزهده ، وتقواه .

أفلا يُنِئُ هذا على نفسه القلقة كثيراً من الطمأنينة والراحة ؟

بلى يُنِئُ . . لو كان إنساناً آخر غير « عمر » أما هو فلا يرى فى هذا النسُك كله سوى جُهد المُقِلِّ العاجز ، ولا يرى فى توفيق الله له سوى نعمة تستوجب شكراً يليق بها . .

ذات يوم ، يقول لجليسه « أبى موسى الأشعرى » :

– « يا أبا موسى ، هل يَسرُّك أن إسلامنا مع رسول الله وهجرتنا معه ، وشهادتنا ، وعملنا كله يُردّ علينا ، لِقاءَ أن ننجو كَفافاً ، لا لنا ولا علينا » . ؟

فيجيبه أبو موسى « لا والله يا عمر ، فلقد جاهدنا ، وصلَّينا ، وصُمْنا ، وعملنا خيراً كثيراً ، وأسلم على أيدينا خلْق كثير وإنا لنرجو ثواب ذلك » .

فيجيبه « عمر » ودموعه تتَحدَّر على وجنتيه كحبَّاتِ لُؤلؤ منثور :

– « أمَّا أنا ، فو الذى نفس عمر بيده لَوِدْتُ أنّ ذلك يُردّ لى ، ثم أنجو كفافاً ، رأساً برأس » . . ! !

انظروا إلى أى مَدًى يهاب الله ويستحى من جلاله ! !

إن رسول الله بشَّره بالجنة .

وإنه لأقوى من كل شهوة وزلّة ، حتى لكأنه معصوم من الخطأ عصمة كاملة . . ! !

ومع هذا يقف دائماً من الله موقف الخشية والحذر والحياء . . .

ولم لا يكون كذلك ، وهو يرى رسول الله نفسه ، يقضى ليلَهُ كله متهجداً متعبداً ، ونهارَه كله صائماً ومجاهداً ، فإذا قيل له : يا رسول الله ، لم تتعب نفسك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ يجيب عليه السلام قائلا : « أفلا أكون عبداً شكوراً » . ؟

إنه توقير الله أكثر ما يكون التوقير ، وشكرانه أكثر ما يكون الشكران . .

وهذه هى المدرسة التى تربى فيها « عمر » وتخرج

مدرسة لو لم يخف أهلها الله ، ما فكروا فى عصيانه ، ولو لم يكن للإثم عقوبة ، ما فكروا فى أن يأثموا ، ولو قال لهم الله : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ، ما خطر ببالهم قط أن يعملوا إلا ما يَرضى ربُّهم ويُحب . .

ذلك أن علاقتهم بالله لم تكن بواعثها الفزع . بل كانت حب الله وتوقيره ، والحياء منه .

وإن إنساننا الباهر العظيم « عمر » . ليمثل قمة هذا الفهم السديد .

إنه على يقين بأن أحداً لا يستطيع أن يشكر الله حق شكره مهما تكن حياته فاضلة عادلة مستقيمة .

وإنه ليعلم أن كل شكر لله . إنما هو نعمة جديدة ، تستأهل شكراً جديداً . .

وهو يعلم أن ما أفاء الله عليه من نعمة الإيمان والهدى والإمارة إنما هى من محض فضله سبحانه وتعالى ، وأن الله كان قادراً على أن يختصَّ بهذا سواه ، أمَا وقد آثره هو وقال له : إليك منى هذه العطايا يا « عمر » . . فإن هذا لَيجعله يذوب ، ويذوب . . وينكمش ثم ينكمش . . . ويقول وقد فجَّر حياءه هذا الشعور : « يا ليت أم عمر ، لم تلد عمر » . . ! !

أوْ يردد : « ما تقول لربك غداً » . . ؟ !

إنه مصمم على أن يتفوق على ذاته ، ويجاوز كل حدود قُدْراته حتى يحقق أكبر حظ ممكن من العرفان والشكر لبارئه وخالقه وربه .

« فعمر » الذى يقف خلف رسول الله – واحداً – من أصحابه . .

و « عمر » الذى يصير فيما بعد خليفة لرسول الله وأمينه على أصحابه . .

« عمر » هنا وهناك ، هو هو ، ذلك الإنسان الخاشع الضارع الأوَّاب الذى لا يرجو فى دنياه وأخراه سوى أن ينجو كفافاً لا وزر ولا أجر . . !

إنه لا يطمع فى أكثر من ألا يقف بين يدى ربه خَزيان بسبب خطأ ارتكبه ، أو مظلمة قصر فى دَرْئها ، أو نعمة لم يبذل الجهد فى شكرها ! !

لا شىء يُؤرقه فى نومه ، ويقلقه فى صحوه مثل الخشية من أن يسأله ربه غداً فى عتاب « لماذا فعلت هذه يا عمر » . . ؟ ؟

و « هذه » التى هى رمز لأى فَعلة مجهولة ، تحمله على أن يقضى عمره كله جوَّاباً داخل نفسه وخارجها باحثاً عن « هذه » . . . ومحاذراً أن يقترف هفوة وهو لا يدرى . . . ! !

من أجل هذا يترك الطيبات والمباهج التى أحلها الله خشية أن تتنكَّر فيها

« هذه » التى يخشى السؤال عنها من الله . . ! !

لنقرأ بعض فقرات كتابه إلى عامله على البصرة « عتبة بن غزوان »

« . . وقد صحبتَ رسول الله ، فعززتَ به بعد الذلة ، وقويت به بعد الضعف ، حتى صرت أميراً مُسلَّطاً ، ومَلكا مطاعاً ؛ تقول فيسمع منك ، وتأمر فيطاع أمرك . فيالهَا نعمة ، إن لم ترفعك فوق قدرك ، وتُبْطِرْكَ على من دونك . . .

« تحوَّط من النعمة تحوُّطك من المعصية ، فَلَهِيَ أخوفهما عندى عليك ، أن تستدرجك وتخدعك ، فتسقط سقطة تصير بها إلى جهنم ، أعيذك بالله وأعيذ نفسى من ذلك » . . ! !

ويحدثنا جابر بن عبد الله فيقول :

— « رأى عمر بن الخطاب لحماً معلقاً فى يدى ، فسألنى : ما هذا يا جابر ؟ قلت : هو لحم اشتهيتُه فاشتريتُه ، فقال : أوَ كُلَّما اشتهيتَ اشتريت ، أما تخاف أن يُقال لك يوم القيامة « أذْهبتم طيِّباتِكم فى حَياتكم الدّنيا » . . ؟ !

* * *

ترى ماذا يكون موقفه من السيئات ، هذا الذى يخاف على دينه من الطيبات . ؟ !

ولكن ما شأن السيئات بعمر ، وهى التى تفرّ منه مذعورة إذا أبصرت نوره على بعد فراسخ ؟ ! !

لقد حرم « عمر » نفسه من طيبات كثيرة ، ومن مَناعِمَ لم يحرمها الله عليه ؛ لأنه كان يرى نفسه عاجزاً عن شكر القليل ، فلم يرد أن يتورط

فى عجز أكثر أمام النعم الكثيرة .. ولأنه كان يحمل فى أمانة كاملة مسئولية القدوة .. ! !

ولو شاء أن يظفر بالمناعم المباحة على كثرتها لظفر بها جميعاً ، ولكنَّ بُطولة روحه وعظمة نفسه ، واستقامة نهجه حملته دائماً على أن يلتزم الكفاف ويختار الشَّظَف

زاره يوماً « حفص بن أبى العاص » ، وكان « عمر » جالساً إلى طعامه ، فدعا إليه حفصاً ، ولكن حفصاً رأى القديد اليابس الذى يأكل منه « عمر » ، فلم يشأ أن يكبد نفسه عناء ازْدِرَاده ، ولا أن يُجشِّم معدته مشقة هضمه ؛ فاعتذر شاكراً .

وأدرك أمير المؤمنين سرَّ عزوفه عن طعامه ، فرفع بصره نحوه وسأله :

— ما يمنعك عن طعامنا .. ؟

ولم تنقص الصراحة حفصاً فقال : إنه طعام جَشِب غليظ وإنى راجع إلى بيتى فأصيب طعاماً ليناً قد صنع لى ..

فقال « عمر » :

— « أترانى عاجزاً عن أن آمر بصغار المِعْزَى ، فيلقى عنها شعرها ، وآمر برِقاق البر ، فيخبز خبزاً رقاقاً ، وآمر بصاع من زبيب فيلقى فى سمنٍ . حتى إذا صار مثل عين الحجَلِ صُبَّ عليه الماء ، فيصبح كأنه دم غزال فآكل هذا وأشرب هذا .. ؟ ؟ » .

فقال له حفص وهو يضحك : إنك بِطَيِّبِ الطعام لَخبير .. ! !

واستأنف « عمر » حديثه فقال

— « والذى نفسى بيده ، لولا أن تَنقُص حسناتى لشاركتكُم فى لين عيشكم — ولو شئتُ لكنتُ أطيبكم طعاماً ، وأرفهكم عيشاً ، ولَنحن أعلم

بطيب الطعام من كثير من آكِليه ، ولكننا ندعُه ليوم تَذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حَملٍ حَملها . .وإنى لأستبقى طيباتى ؛ لأنى سمعت الله تعالى يقول عن أقوام ، أَذهبتُم طيِّباتكم فى حياتكم الدُّنيا واستَمْتعتم بها » . . . ! ! !

هكذا عزله حياؤه من الله عن كل ترف ، بل عن كل راحة فى الدنيا ، وأبى أن يصيب وأهلُه من الطعام إلا تقوُّتاً ، ومن العيش إلا كَفافاً . . ! ! !

* * *

فإذا جئنا موقفه من السلطان ، حيث يتنازل الناس عن أكثر أعمارهم لقاء أيام يقضونها سادة حاكمين ، فماذا نجد . . ؟ !

أما هذا السلطان ، على ضخامة ما أحرز منه « عمر » ، فما شقى بشىء مثلما شقى بأن رأى نفسه خليفة ، وأميراً ، وحاكما . . ! !

لقد كانت أغلى أمانيه أن يظل « عمر بن الخطاب » ، لا غير . . فلا هو خليفة ، ولا هو أمير .

ولقد اقتربَتْ منه الخلافة إثر وفاة رسول الله . إذ بسط إليه « أبو بكر » يمينه فى اجتماع السقيفة قائلا : هاتِ يدك يا « عمر » نبايعْ لك . . ولكن « عمر » خلص منها ناجياً ، إذ قال

— « بل إياك نبايع فأنت أفضل منى » .

قال أبو بكر : « أنت أقوى منى يا عمر » .

قال « عمر » : « إن قوتى لك مع فضلك » . وسارع فمد يمينه وبايع أبا بكر ، وبايعه الناس على أثره . .

وحين كان أبو بكر يودع الدنيا ، ويعهد بالخلافة « لعمر » . كان

« عمر » يتقبل مكرهاً وكارهاً إمارة المؤمنين . ولولا أن يكون باعتذاره عنها في هذا الظرف الحرج الدقيق هارباً من واجب سيسأله الله عنه غداً ، لرفض السلطان وهرب من الإمارة . .

« أيها الناس . . . إني قد وليت عليكم ، ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم ، وأقواكم عليكم ، وأشدكم اضطلاعاً بأموركم ما توليت ذلك منكم ، ولكنّي عمر انتظار الحساب » . . !

انظروا . . . ولكنّي « عمر » انتظار الحساب . . ! !

هذا رجل مشغول لا غير بالكلمة التي سيقولها له الله غداً وبالكلمة التي سيقولها هو لله .

والحظوظ الوافية عنده ليست في منصب أو جاه ، إنما هي في الظفر برضاء الله سبحانه .

وفَد عليه يوماً جماعة من المسلمين النازحين . فسألهم عما صادفهم من أخبار الناس في البلاد التي مروا بها . .

فقالوا : أما بلد « كذا » فإنهم يرهبون أمير المؤمنين ويخافون بأسه . . وأما بلد « كذا » فإنهم جمعوا أموالا كثيرة تنوء بها السفن وهم في الطريق بها إليك . . وأما بلد « كذا » فإن بها قوماً صالحين يدعون الله لك ويقولون : « اللهم اغفر لعمر وارفع درجته » . .

فقال « عمر » ، مُعقّباً على حديثهم هذا :

— « أما من خافني ، فلو أريد بعمر الخير ما خِيفَ منه . . وأما الأموال التي تنوء بها السفن فلبيت مال المسلمين . . ليس لعمر ولا لآل عمر فيها شيء . . وأما الدعاء الذي سمعتم بِظَهْرِ الغيب ، فذلك ما أرجوه » . . ! !

أجل ، هذا خير ما يرجو « عمر » . . مغفرة ربه ورضوانه . أما

السلطان ، وما حول السلطان من زينة وزخرف ونفوذ ؛ فتلك محنة « عمر » ، وإنه ليسأل الله أن يجتازها فى خير وعافية . . !

حين دُعى للقاء ربه ، واقتربت اللحظات التى سيودع فيها دنيا الناس ، وكانت مشغلته الكبرى آنئذ اختيار الرجل الذى يسلمه الأمانة والزمام ، اقترب منه « المغيرة بن شعبة » قائلا : أنا أدلك عليه يا أمير المؤمنين ، إنه « عبد الله بن عمر » . .

هنالك انتفض « عمر » وقال : « لا إِرَبَ لنا فى أموركم ، إنى ما حَمِدْتُها – يعنى الخلافة – فأرغب فيها لأحد من أهل بيتى . إن كانت خيراً فقد أصبنا منه ، وإن كانت شراً ، فَبِحَسْب آل عمر أن يُحاسَب منهم رجل واحد ويُسأل عن أمر أمة محمد . . . ألاَ إنى قد جهدت نفسى وحرمت أهلى . . وإن نجوت كفافاً لا وِزْر ولا أجر إنى لسعيد » . . !

بالله ما أتقاه ، وما أنقاه ، وما أبرَّه ، وأطهره . . ! !

إنه مهموم بما سيقوله لربه غداً .

إنه يرفض كل نعيم يخشى أن يلجلج لسانه غداً بين يدى الله .

ويُجفل عن السلطان على فرط عدله وورعه وأمانته ، مخافة أن تتعثر الكلمات على لسانه غداً حين يلقى الله . !

إن الكلمة التى سيجيب بها غداً حين يسأله الكبير المتعال ، هى « البوصلة » التى تتحرك معها وعلى هداها كل ذرات كيانه وروحه .

وهو فى شدته حين يشتد ، وفى لينه حين يلين ، إنما يحركه حرصه الشديد على أن يلقى الله صادق الحجة .

يقول « لعبد الرحمن بن عوف » :

— « يا عبد الرحمن ، لقد لِنتُ للناس حتى خشيت الله فى اللين ، ثم اشتددت حتى خشيت الله فى الشدة ، وَايْمُ اللهِ لأنا أشد منهم فرَقاً وخوفاً ، فأين المخرج . . . ؟ ؟ » .

يقول هذا ، وينتحب باكياً .

فيقول عبد الرحمن بن عوف ، وهو يتملىَّ هذا المشهد الفريد :

— « أُفٍّ لهم مِن بَعدك » . . . !

* * *

تُرى كيف قضى الرجل العظيم تلك السنوات العشر ، والأشهر الستة ، والأيام الأربعة التى قضاها خليفة للمسلمين وأميراً للمؤمنين ؟ ؟

ترى كيف قضاها ، وأمضاها ، وعاناها تحت ضغط هذا الإحساس الراجف ، ، والقلب الواجف من خشية الله العلى الأعلى . .؟

وهل سمع الناس فى طول دنياهم وَعرضها ، بعاهلٍ استحالت كل أُبَّهة السلطان وبذَخه أمام ناظريه إلى جمر ملتهب يتوقاه أكثر ما يكون التوقِّى ، ويحاول الفرار منه لو يجد للفرار سبيلا ؟

عاهل ذَلَّل كل سلطانه لخشية الله ، ووفر للناس من الطمأنينة والأمن قدْر ما خاف هو الله . . ؟

حاكم لم تنل من سكينة نفسه مهامُّ الأمور وأخطارها ، ولا عَقد ألوية الجيوش الفاتحة وأخبارها ، ومع هذا فقد كان يزلزله زلزالا شديداً آهة مظلوم ، أو نَفثة مكروب ، أو همهمة حق ضائع يقول له صاحبه « اتق الله يا عمر » . . ! !

هل سمع الناس بمثله . . ؟ ! ومتى . . ؟

ذات يوم وهو جالس مع أصحابه اقتحم المجلس رجل مكروب تَغشاه وَعثاء السفر ، وإذ يقترب من الناس ويراهم يقولون لأحدهم يا أمير المؤمنين ، يتجه صوب هذا الأمير ، ويقول له فى مرارة :

– « أأنت عمر ؟ ؟ ويل لك من الله يا عمر ! » ثم يمضى لسبيله غير وَانٍ ولا مكترث . .

ويلحق بعض الحاضرين بالرجل فى غيظ منه وحَنق عليه ، ولكن « عمر » يناديهم ويأمرهم أن يعودوا لمجلسهم ، ويهرول هو وراء الرجل وفؤاده يرتجف .

ألم يقل له الرجل : ويل لك من الله يا « عمر » ؟ ؟ إنها الطَّامَّة إذن ، وإنه الهول الذى لا يطيق « عمر » عليه صبراً . . !

ويدرك الرجلَ ثم يعود به ويسأله : « ويلِي من الله لماذا ، يا أخا العرب » ؟ ؟

فيجيبه الرجل : لأنَّ عمالك وولاتك لا يعدلون ، بل يظلمون .

ويسأل « عمر » : أىّ عمالى تعنى . . ؟

يقول الرجل : عامل لك فى مصر اسمه « عياض بن غنم » .

ولا يكاد « عمر » يسمع تفاصيل الشكوى حتى يختار من أصحابه رجلين ويقول لهما : اركبا إلى مصر ، وآتيانى بعياض بن غنم . . ! !

* * *

هذا الرجل « عمر » . .

هذا الشامخ العارم الذى يتفجر قوة وجُرأة وبأساً . .

إذا أردت أن تبصره يرتجف . . كعصفور احتواه إعصار ، فليس

عليك إلا أن تقول له : ألا تتق الله يا « عمر » . ؟ ؟

هنالك تشهد إنساناً قامت قيامته ، ويبدو كما لو كان واقفاً أمام الله . . الميزان عن يمينه ، والصراط إلى يساره،وكتابه منشور أمام عينيه ، والأفق كله يدوى فى سمعه :

« اقْرَأْ كتَابكَ ، كَفَى بنفْسِكَ اليَوْمَ عَلَيْك حَسِيباً » . . ! !

وعلى الرغم من معاناته المضنية لهذه المواقف ، فإنه كان يقرّ بها عيناً ويطيب نفساً ، لأنها تذكّره بجلال الله وبمقامه ، ولأنها تمنحه اليقين بأنه لم يجاوز قدره أبداً كعبد لله ، وخادم للناس . . ! !

لطالما كان يدعو « أبا موسى الأشعرى » ليتلو عليه بصوته العذب المؤثر آيات من القرآن العظيم ويقول له : « ذكّرنا ربّنا ، يا أبا موسى » فيقرأ أبو موسى ، ويبكى عمر . .

وكثيراً ما كان يلقى صبيًّا من الصبيان فى طرقات المدينة ، فيأخذ بيده ويقول له وعيناه تفيضان من الدمع : « ادع لى يا بنى ، فإنك لم تُذنب بعـد » . . ! !

وساعةَ كان يستقبل الموت ، يقول لابنه عبد الله :

— « يا عبد الله ، خذ رأسى عن الوسادة وضعه فوق التراب ، لعلّ الله ينظر إلىَّ فيرحمنى » . . ! !

إن الميزان قد استقام فى يد « عمر » تماماً حين أسلم وجهه لله وهو محسن .

وإن طبيعته الهادرة الجياشة ، وقُدراته الفائقة الغلاَّبة ، قد نهضت ثابتة الخطى فوق صراط العدل ، والفضيلة ، والواجب ، حين وَثَّقتْ بالله عُراها . وأسلَستْ وراء « محمد » خطاها . .

وليس يُحاذر « عمر » على نفسه وعلى مصيره خطراً مثلماً يحاذر أى انعزال عن الله ، وأى انحراف عن طريق رسوله

كان قبل إسلامه يتحرى الصواب ليسير وَفقه سيرة جديرة باستعداده ، وعظمة شمائله ، وقوة روحه

أما اليوم ، فقد عرف مَحض الحق ومحض الصواب حين جاءهم به من عند الله رسول كريم ، لا ينطق عن الهوى

وإن « عمر » ليؤرخ ميلاده بهذا اليوم الذى صافح فيه الرسول وقال : « أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله » . .

فيومئذ ، بل ساعتئذ ، وجد نفسه ، والتقى بمصيره العظيم . .

وهو حين آمن بالله وبرسوله ، وبدينه ، لم يؤمن إيمان العوام ، ولا إيمان المنتفعين ، ولا إيمان الهُواة . . بل آمن إيمان العارفين الأبرار .

وحين سمع لأول مرة آية الله يتلوها رسوله . . تلك الآيةالتى تقول : «أَفحسِبْتم أنَّما خلَقْناكم عَبثاً ، وأنَّكُم إلينَا لا تُرجَعُون » ؟ سمعها ، وكأنما يسمعها وحده ، وكأنما أنزلت إليه وحده . . وأدرك يومئذ كما أدرك قبلئذ أن حياته القصيرة مهما تطل سنواتها لن تغنى عنه شيئاً ، وأنه بحاجة إلى ألف حياة مثلها لكى يستطيع أن يصنع صنيعاً يرضيه . . ولكى يستطيع أن يعبد ربه ويشكره

من أجل هذا ، كان شديد الخوف على اللحظة العابرة أن تَضيع وعلى الكلمة العابرة أن تنحرف . . وعلى الخلجة العابرة ، أن تزِلّ . .

كان شديد الخوف على حياته السامقة أن تغيرها خطيئة ، أو تَعيبها شبهة ؛ لأنها لو كانت ملكا له لوجب عليه أن يَرْبأَ بها عن كل سوء ، فكيف وهى فى تقديره ليست حياتَه ، وليست ملكه إنما هى وديعة الله

عنده . . واللهُ صاحبها ومالِكُها ولسوف يسأله عنها : « أفحَسِبْتم أنمَّا خلَقْناكم عَبَثاً ، وأنَّكم إلينا لا تُرجَعُون » . . ! !

من أجل هذا ، عاش قلقاً مؤرَّقاً . . ولكنه القلق الذكى المبتعث والأرق المفكّر الممتلئ . . .

لا ينام إلا غِبًّا . . ولا يأكل إلا تقَوُّتاً . . ولا يلبس إلا خشناً . . يقظانُ دائماً . .

يقول : « إذانمتُ الليل أضعتُ نفسى ، وإذانمت النهار ضيعت الرَّعية » . ! !

ويسأل كل من يلقاه فى لهفة وجد : « قل لى بربك ولا تَكْذِبنى كيف تجد عمر . . ؟ أتحسب الله عنى راضياً . . ؟ أترانى لم أَخُنِ الله ورسوله فيكم » ؟؟ ! !

وإذا غَشِيته من مظنة التقصير غاشية ، صاح صيحة مكظومة :

— « يا ليت أم عمر ، لم تلد عمر » . . ! !

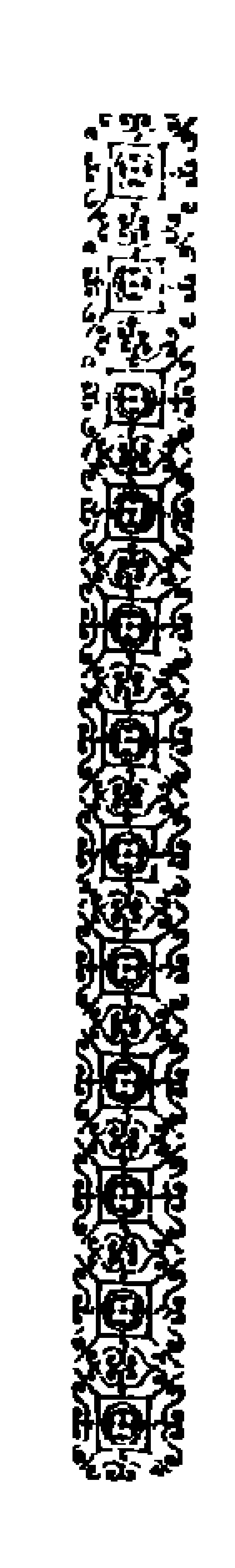
كل هذه الرجفة . . كل هذا الحياء . . كل هذا الهم الجليل ، لأنه لا يدرى :

ماذا يقول لربه غداً . . ! ! !

الفصل الثالث

ألأنك ابن أمير المؤمنين؟!





رأيناه كيف وُهب طبيعة سوية متفوقة باهرة .

ورأيناه كيف وصل طبيعته هـذه بالله ، ووضعَها فى خدمته وعنـد أمره .

وإنسان يتوافر له هذا ، لا بد أن يكون إحساسه بالمسئولية مشحوذاً وعارماً

وإن عمر لَذلك الإنسان .

ينفعل بالمسئولية . ويتبتّل لها ، ويقبل عليها ، فى مثل عزم المرسلين . .

والمسئولية لديه لا تتجزأ ، ولا تتنوع ، ولا تتفاوَت . .

ليس هناك مسئوليات صغيرة وأخرى كبيرة . . مسئوليات عادية وأخرى فوق مستوى العادة .

هناك مسئوليات وحسب . .

و « عمر » أمام هذه المسئوليات . هو « عمر » الذى يحتشد لكل تبعة ولكل عمل ، احتشاداً لا تتفاوت درجاته . . لأنه يتصرف وَفق طبيعته القوية الأمينة المؤمنة .

وطبيعته هى الأخرى لا تتجزأ ، ولا تتقسَّم .. كل عمل من أعمال « عمر » نجد فيه « عمر » كله ..

ضع عينيك على أية واقعة من وقائع حياته ، تجد فيها شمائله كلها — عدله ، ورعه ، زهده ، إيمانه ، شدته ، لينه ، عظمته ، بساطته .. ! !

وهو لا يتحمل من المسئولية القدْر الذى يخصه ، ويبرئ ذمته ، بل يحمل منها القدر الذى يتطلبه الموقف جميعه ، وتُحقق به المسئولية كل ذاتها ، ولا يسأل نفسه ساعتئذ إن كان وحده ، أم كان معه نُصَراء .

إن بين جوانحه ، ومِلء نفسه تفانياً رهبانيًّا ، لا يسأل عن العواقب ولا يُجرى بين يديها أى تقدير أو حساب .. ! !

* * *

لقد كان يوم أسلم ، العضو الأربعين بين رجال هذه الجماعة المؤمنة ولا يكاد يمضى على إسلامه لحظات . أجَل لحظات ، حتى ينتفض فى قلبه الشجاع إحساسه بمسئوليته عن الدين كله ، وعن هذه الجماعة المسلمة كلها ، بل وبمسئوليته عن مستقبل الدين وأهله عَبْر القرون الآتية والدهور المقبلة ..

ومن ثَمَّ يخرج من فوره معلناً إسلامه على الصورة التى أشرنا إليها من قبل .. وهو آنئذ يدرك تماماً أنه لا يعلن إسلامه هو .. إسلام « عمر بن الخطاب » .. بل يعلن إسلام التسعة والثلاثين الذين سبقوه إلى الإسلام ، والذين يعبدون الله خُفية .. — بل يعلن أيضاً إسلام مئات الملايين القادمة عَبر المستقبل .. ! !

ولا تقف مسئوليته عن هذا الدين الذى اعتنقه بإعلان إسلامه ،

بل تُجاوز ذلك إلى إخراج الإسلام والمسلمين من الخفاء الذى اضطرهم إليه اضطهاد قريش . .

وهكذا يذهب إلى رسول الله قائلا :

« والله يا رسول الله لن نعبُد الله سرًّا بعد اليوم » . .

وتخرج الدعوة لتواجه خصومها ؛ وتنادى الموعودين بها . وتتلقى قريش من تكبيراتها المدوية أولى الكلمات فى منشورِ نعيها ، ونعى أصنامها . . ؟ ؟

* * *

كانت هذه أولى بركات « عمر » . .

وكان هذا نَموذجاً للأسلوب الذى سيتحمل به « عمر » مسئولياته عن دين الله ، ودنيا الناس .

إنه أسلوب رجل يرى نفسهتِجاه الأحداث والمواقف ، وكأنه المسئول الأوحد عنها

كل أزمة ستواجه الإسلام والمسلمين ، سيجابهها « عمر » ، بوصفه المسئول وحده عن مقارعتها وحلها .

وإيمانه بمسئوليته هذه سيدفعه إلى أن يرفض على طول الخط كل دَنِيَّة فى الدين ، وكل مُلاينة لأعداء هذا الدين .

وعلى الرغم من إيمانه المطلق برسول الله ، فإن مسئوليته ستتحرك فى كل الاتجاهات حتى لو تجعله يبدو – معارضاً – للرسول الذى يقدسه ويفتديه . . ! !

ففى صلح الحديبية يرى « عمر » أن المزايا التى أعطاها الرسول عليه السلام لكفار قريش سخية وكثيرة ، وهو يؤمن بضرورة مناجزتهم ودخول

مكة عليهم طوعاً منهم أو كَرهاً لهم ، ما داموا لا يريدون أن يَجنحوا للسِّلْم ، ويحتكموا إلى الحق . .

وما دام الحق والباطل فى معركة ، فلابد للحق أن يَستعلِيَ ، بدل أن يُهادن . ولابد له أن يُناجز ، بدل أن يُساير . .

هكذا فهم « عمر » المسألة ، وكوّن الرأى ، ولم يكن للجهر به من مَفر . .

وهكذا أقبل على رسول الله قبل أن يبدأ الكاتب فى تحرير صحيفة المعاهدة وقال :

– يا رسول الله ، ألَسْنَا على الحق ، وهم على الباطل . ؟

قال الرسول : بلَى . .

قال عمر : أليس قَتلانا فى الجنة ، وقتلاهم فى النار . . ؟

قال الرسول : بلى . .

قال عمر : فَعلامَ نُعطَى الدَّنِيَّة فى ديننا ، ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم . . ؟ !

قال الرسول : ابنَ الخطاب . . ؟ إنى رسول الله ولن يضيعنى الله أبداً .

وترنّ عبارة « إنى رسول الله » فى رُوع « عمر » رنين الصدق ، ويستنتج من نطق الرسول بها فى هذا المقام ، أن الخُطة أكثر وأبعد من أن تكون مجرد رأى عابر لرسول الله ، فيسكت . .

ويذهب غير بعيد ، يدير خواطره على الموقف كله ، ويعود إحساسه العارم بالمسئولية فَيغالِبُه ، ويُغريه بالمعاودة ، فينطلق حثيثاً إلى أبى بكر رضى الله عنه ، ويُسِرُّ فى أذنه الحديث :

– يا أبا بكر ، ألسنا على الحق ، وهم على الباطل . . ؟

- بلى يا عمر . . !

- فلماذا إذن نعطى الدنية فى ديننا ، ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم . . ؟ !

ويطمئنه أبو بكر إلى أن الله لن يتخلى عن رسوله ، وأن فتح الله قريب .

ويهدأ « عمر » . . وإن كان هدوؤه هذا لم يمنعه أن يُشيِّع « سهيل ابن عمرو » مندوب قريش ، بنظرات مضطرمة فاتكة . . ! !

وعندما مات عبد الله بن أبىّ بن سلول ، وكان كبير المنافقين فى المدينة ، عارض « عمر » فى إصرار ، صلاة رسول الله عليه .

ولنصغ إلى « عمر » نفسه يقص علينا النبأ .

- « لما توفى عبد الله بن أبىّ ، دعى رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة عليه ، فقام إليه . فلما وقف عليه يريد الصلاة تحولت حتى قمت فى صدره ، فقلت يا رسول الله ، أعلَى عدو الله تصلى . . ؟ وأخذت أعدد أيامه الخبيثة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتبسم ، حتى إذا أكثرتُ عليه ، قال ؛ أخِّرْعنى يا عمر ، إنى خيرت فاخترت ، قد قيل لى استغفر لهم ، أو لاتستغفر لهم ، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ، فلو أعلم أنى إن زدت على السبعين غفر له ، لزدت . . ثم صلى عليه ومشى مع جنازته وقام على قبره حتى فرغ منه . .

« فعجبت لى ، ولجرأتى على رسول الله ، فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت الآية : [ولا تُصَلِّ علىَ أَحدٍ مِنْهم ماتَ أبداً ، ولا تَقُمْ عَلى قَبْره] فما صلى بعدها رسول الله على منافق ، ولا قام على قبره حتى قبضه الله عز وجل . » . . . ! !

هذا المشهد يكشف عن الطريقة التى كان « عمر » يحمل بها مسئولياته فى شجاعة وصدق .

فركوب مَخاطر الدنيا كلها أهون عليه من أن يقول للرسول : لا . . ولكنه إنسان لا يملك أمام مسئولياته خياراً ، وما دام يرى من واجبه أن يقول : لا . . فليقلها وأمره إلى الله ؛ فإذا استمسك الرسول بموقفه ، يكون « عمر » قد قال كلمته . وأبرأ ذمته ، وليس أمامه بعد هذا سوى سبيل الطاعة والإيمان .

وهو فى هذه الواقعة ، قدّر أن صلاة الرسول على منافق ضخم كعبد الله بن سلول ، عمل يغرى المنافقين بمزيد من اللؤم والصّلَف ، ويُضائل من حرمة الصدق والإخلاص عند كثير أو قليل من الناس .

وإجلاله المسئولية يدعوه لإعلان هذا الرأى ، حتى فى مثل هذا الموطن ، حيث وقف الرسول بالفعل ليصلى على جثمان الرجل ، فيعترضه « عمر » . ويقول : أعلَى عدو الله تصلى يا رسول الله . . ؟ !

على أنّ تناول « عمر » مسئولياته ، يبدو أروع وأبهى ما يكون عندما صار أميراً للمؤمنين . . ! !

هنا نلتقى بأعظم آيات التفوق الإنسانى . .

هنا ، نبصر نبوغ النفس ، وبطولة الروح . وإعجاز السلوك . . ! !

هنا ، نرى مالا عين رأَتْ ، ولا أذن سمعتْ ، ولا يكاد يخطر بقلب بشَر . . !

أجل ، هنا العظائم تتفوق على نفسها ، ويَزْحَمُ بعضها بعضاً هنا « عمر » . . رضى الله عن « عمر » ! ! !

حاكم يحمل مسئولياته على نَمط فذّ . ويعطى البشر جميعاً إلى

آخر لحظة فى الأبد ، درساً فى الأمانة – أىَّ درس ، وقدوة فى الذمة – أى قدوة . . ! !

موقفه من نفسه . . موقفه من أهله . . موقفه من الضعيف ومن القوى فى قومه وأمته . . موقفه من وُلاته . . موقفه من أموال الأمة . .

مواقفه هذه ، المترَعة بإجلال منقطع النظير لمسئوليته تجاه عمله ، وتجاه أمانة الحكم فى كل مجَالى الحكم ومظاهره . .

أما هو كحاكم . فقد حرم نفسه لا من الطيبات المشروعة للحاكمين فحسب . بل من الطيبات المشروعة للمواطن العادى فى كل زمان ومكان .

فعَل ذلك بروح المسئولية التى حبَّبتْ إليه أن يكون أول من يجوع إذا جاع قومه . . وآخر من يشبع إذا شبعوا . . والتى فرضت عليه أن يُعانى كل ما يعانيه الناس من عمل وشظف .

وإنه – رضى الله عنه – ليصور هذا الضمير القوى فى فلسفة حكيمة فيقول :

– « كيف يعنينى شأن الناس ، إذا لم يُصِبنى ما يُصيبهم » ! ! . .

وهكذا رأينا أمير المؤمنين ، يلتزم أكل الزيت ، حين أصاب المسلمين أزمة شديدة فى اللحم والسمن ، ويُدمن ابن الخطاب أكل الزيت حتى تئن أمعاؤه وتُقرقِر ، فيضع كفه على بطنه ، ويقول :

أيها البطن لَتمرَنَنَّ على الزيت ، ما دام السمن يباع بالأواقى » . . ! !

وفى عام الرمادة ، وكان عام مجاعة قاتلة فى المدينة ، أمَرَ يوماً بنحر جَزور ، وتوزيع لحمه على أهل المدينة . .

وقام المختصون بإنجاز المهمة ، بيد أنهم استبقوا لأمير المؤمنين ، أطيب أجزاء الذبيحة . .

وعند الغداء ، وجد « عمر » أمامه على المائدة سَنام الجزور وكبده ، وهما أطيب ما فيه .. ! فقال :

— من أين هذا .. ؟

قيل : من الجزور الذى ذبح اليوم ..

فقال ، وهو يزيح المائدة بيده الأمينة :

— بَخ بَخ ، بئس الوالى أنا ، إن طعمتُ طيبها ، وتركت للناس كَراديسها — يعنى عظامها — » ..

ثم نادى خادمه أسلم ، وقال له :

— يا أسلم ، ارفع هذه الجَفْنة . وائتنى بخبز وزيت .. ! !

إن قوله : « بئس الوالى أنا ، إن طعمت طيبها » يرسم الصورة الكاملة المضيئة لروح المسئولية التى كانت تسيطر على تصرفات ذلك العاهل المنقطع النظير .

إنه رجل يرى نفسه واحداً من الناس آثره الله عليهم بمزيد من التبعة والواجب حين ولاه أمرهم . واستخلفه عليهم . ولم يُؤْثِره بامتياز يجعل الحكم كَلأً مباحاً ، وقَنَصاً بَواحاً .. ! ! !

على أن « عمر » وهو أمير المؤمنين ، يبذل من الجهد ، ما يشفع له إن هو امْتارَ لنفسه طعمة طيبة تُعينه وتقوّيه ..

هذا منطقنا ، وهو منطق عادل فى رأينا ..

أما « عمر » ، فصاحب منطق آخر .. وهو يعرف العدل فى ذُراه العالية التى تتقطع الأنفاس دون بلوغها .. ! !

هو يدرك أن مسئوليته تقتضيه أن يوفر للناس عيشهم ، فإذا قعدت به دون هذا ظروف لا يملك لها دفعاً ، تكون مسئوليته أن يُسوِّىَ بينهم بالحق .

وأن يكون هو أول من يحمل حظه من الخصَاصة والضنك . .

ذات يوم يتلقى من أحد ولاته هدية من الحلوى ، ولا تكاد توضع بين يديه حتى يسأل الرسول الذى جاء يحملها :

– ما هذا . . ؟

قال : حلوى يصنعها أهل أذربيجان ، وقد أرسلنى بها إليك عتبة ابن فرقد ، وكان والياً على أذربيجان – فذاقها « عمر » ، فوجـد لها مذاقاً شهياً . .

فعاد يسأل الرسول :

– أكل المسلمين هناك يطعمون هذا . . . ؟

قال الرجل : لا . . وإنما هو طعام الخاصة . .

فأعاد « عمر » إغلاق الوعاء جيداً ، وقال للرجل :

– أين بعيرك . . ؟ خذ حِملك هذا ، وارجع به لعتبة ، وقل له : « عمر » يقول لك . اتق الله ، وأشبع المسلمين مما تشبع منه . . ! !

هذا حاكم لا نلقاه فى مكان الصدارة ، ولا فى مقدمة الموكب إلا حين تكون المَخاطر داهمة . . أما دون هذا ، فقد اختار مكانه دوما هناك . . آخر مقعد . . فى آخر صف . . ليحرس القافلة ، وليتأكد إذا كان ثمت نعمة مقبلة ، أنها لم تبلغه إلا بعد أن تكون قد مرت بالناس جميعاً . . ! ! !

* * *

فإذا جئنا موقفه من أهله وأسرته ، وجدنا تقديساً للمسئولية لا يُضاهيه تقديس ، وإكباراً لأمانة الحكم . لا يضاهيه إكبار . .

إنه لا يحرمهم مما ليس لهم بحق فحسب ، بل مما هو لهم حق مشروع .

وإنه لَيحمّلهم من المسئوليات أضعاف ما يَحمله نظراؤهم من الناس ؛ حتى صارت قرابة « عمر » عِبئاً يود الأقرباء لو استطاعوا منه الفرار . . ! :

إن أمير المؤمنين يعلم أن أمانة الحكم لا تُمتحن امتحانها الوثيق إلا هنا . . فى علاقات الحاكم بأهله ، هل لهم قانون ، وللناس قانون ؟ أم أنهم والناسَ سَواسِيَةٌ أمام قانون واحد ، وعدالة واحدة ؟ ؟

من أجل هذا بالَغ فى إلزامهم جميعاً مسئولية القدوة

ولطالما حملهم على شظف العيش ، ولَأْواءِ الحياة . . لطَالما انتزع من أيديهم ، بل من أفواههم اللقمة الطرية . . ! !

ولقد كانت الأرض تَميد ، والسماء تَمُور ، حين يعلم أن أحداً من أسرته ذهب بامتياز — أىّ امتياز . . !

وكان إذا سَنَّ قانوناً ، أو حظَر أمراً ، جمع أهله أوّلاً . وقال لهم :

— « إنى قد نهيت الناس عن كذا ، وكذا . وإن الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطير إلى اللحم ، فإن وقَعتم وقعوا . وإن هِبتم هابوا . وإنى والله لا أوتى برجل منكم وقع فيما نهيت الناس عنه إلا ضاعفت له العذاب لمكانه منى . . فمن شاء منكم فليتقدم ، ومن شاء فليتأخر » ! !

أرأيتم . . ؟ ؟

« ضاعفتُ له العذاب لمكانه منى » . .

إن القربَى من عمر ، لاتعنى أن العدل فى إجازة . . ولاتعنى أن القانون لَغو . .بل تعنى أضعافاً مضاعفة من التبعة والمسئولية والحرمان. . تعنى البعد من كل شبهة . والتخلى عن كل متعة . تعنى أن يتقدم هؤلاء الأقرباء عند الخطر ، ويتأخرون عند المغنم ، بل هى كذلك تعنى عند « عمر » حرمانهم من حق مكتسب ، تفادياً لشبهة محتملة . . ! !

ولو رأيناه وهو يعاتب ولده « عبدالله بن عمر » لرأينا عجباً . .

مع أن عبدالله رضى الله عنه كان إماماً فى الورع والزهد والتُّقى . . .

كان يتبع خطى أبيه ، ولم تكن نفسه لتزين له شبهة من سوء ؛

ومع هذا ، فما كاد« عمر » يراه يستروح نعمة متواضعة من نعم الحياة الدنيا ، إلا قال له :

— « أَلِأنك ابن أمير المؤمنين » . . ! ؟

وكانت هذه العبارة : « ألأنك ابن أمير المؤمنين » تمثل الشعار الحيّ الذى رفعه « عمر » لأهله خاصة ، وللناس كافة تجاه الحق والمعدلة .

يدخل يوماً دار ابنه عبد الله . فيجده يأكل شرائح لحم ، فيغضب ويقول له :

— « أَلِأَنك ابنُ أمير المؤمنين تأكل لحماً ، والناس فى خَصاصة . . ؟ أَلاَ خبزاً وملحاً . ؟ ألا خبزاً وزيتاً » . . ؟ ! !

ويخرج إلى السوق يوماً فى جولة تفتيشية ، فيرى إِبِلاً سِماناً ، تمتاز عن بقية الإبل بنموها وامتلائها ، فيسأل :

— إبلُ مَن هذه . . ؟ ؟

قالوا : إبل عبد الله بن عمر . .

وانتفض أمير المؤمنين ؟ كأنما القيامة قامت ، وقال :

— عبد الله بن عمر . . . ؟ ؟ بخٍ بَخٍ يَا ابن أمير المؤمنين ! !

وأرسل فى طلبه من فوره ، وأقبل عبد الله يسعى . . وحين وقف بين يدى والده ، أخذ « عمر » يفتل سَبلة شاربه — وتلك كانت عادته إذا أهمَّه أمر خطير — وقال لابنه :

— ما هذه الإبل يا عبد الله . ؟ ؟

فأجاب : إنها إبل أنضاء – أى هزيلة – اشتريتها بمالى ، وبعثت بها إلى الحِمَى – أى المرعى – أتاجر فيها ، وأبتغى ما يبتغى المسلمون . .

فعقّب « عمر » فى تَهكّم لاذع :

– ويقول الناس حين يرَوْنها . . ارعوا إبلَ ابنِ أمير المؤمنين . . اسقُوا إبلَ ابن أمير المؤمنين . . وهكذا تَسْمَنُ إبلُك ، ويَربُو رِبحُك يا ابن أمير المؤمنين » . . ! !

ثم صاح به :

– [يا عبد الله بن عمر ، خذ رأس مالك الذى دفعته فى هذه الإبل ، واجعل الربح فى بيت مال المسلمين] . .

يا خالق هذا الإنسان ، سبحانك . . . ! ! !

إن « عبد الله بن عمر » لم يأت أمراً نُكْراً ، إنما يستثمر ماله الحلال فى تجارة حلال ، وهو بدينه القوى وأخلاقه الأمينة فوق كل شبهة .

ولكن لأنه ابن أمير المؤمنين ، يحرمه أمير المؤمنين ، مما هو له حق – مظنة أن تكون بُنوّته لعمر ، قد هيأت له من الفرص مالا يتوافر لغيره من الناس . . ! !

هذا حاكم يمسك الميزان فى رهبة لا تماثلها رهبة ، وهو لا يدرأ أهله عن أن يكونوا أهل حظوظ ومزايا فحسب . . بل إنه ليضطرهم إلى أن يعيشوا معه فوق صراط أحدّ من الشفرة . . وأرق من الشعرة ، حتى لكأنما رُزِئوا بقرابة « عمر » ، بدل أن يهنأوا بها ويتبذخوا فيها . . !

يصل إلى المدينة يوماً بعض أموال الأقاليم ، فتذهب إليه ابنته « حفصة » رضى الله عنها ، لتأخذ نصيبها . وتقول له مداعبة :

— « يا أمير المؤمنين ، حق أقاربك فى هذا المال ، فقد أوصى الله بالأقربين » . .

فيجيبها جادًّا :

— « يا بُنية ، حق أقربائى فى مالى . . أما هذا ، فمال المسلمين . . قومى إلى بيتك » . . ! !

هذا رجل تأدب على يد « محمد » رسول الله عليه الصلاة والسلام . . ولطالما رآه يقول لأحب الناس إليه ، ابنته « فاطمة البتول » « لا يا فاطمة . . إن فى المسلمين من هم أحوج منك لهذا المال » . .

ثم يحرمها ويعطى سواها ! !

مِن هذا المنهل ارتوى « عمر » ، وعلى هذا الهدى سار . .

وهو يطالب أهله وذويه أن يرتفعوا دوماً إلى مستوى المسئولية لا الحظوة . فليس لدى « عمر » حُظوة لإنسان . .

هو يريد منهم أن يكونوا عوناً له على واجبه ، وذلك يقتضيهم أن يبذلوا جهداً أكثر ، ويحرزوا تفوقاً أكبر . .

يقتضيهم أن يعطوا كثيراً ، ويأخذوا قليلا ، وينتظروا من الله حُسن الثواب . .

أجل . . يقتضيهم أن يكونوا قدوة لأهل العفاف والكفاف .

حين أفاء الله على المسلمين فى عهده خيراً كثيراً ، وامتلأ بيت المال بالمال ، أشار عليه نفر من صحبه ، أن يقوم بإحصاء الناس ، ورَصْدِ أسمائهم فى ديوان ، حتى ينالوا جميعاً رواتبهم السنوية فى نظام محكم . .

واختير لهذه المهمة — عقيل بن ابى طالب ، وجبير بن مطعم ، ومخرمة ابن نوفل — وكانوا أعلم الناس بأنساب قريش ، وأكثرهم معرفة بالمسلمين .

جلسوا يدونون الأسماء ، بادئين ببني هاشم ، ثم بآل أبي بكر ثم بنى عَدِىَ آل عمر . . .

فلما طالَع أمير المؤمنين الكتاب رده إليهم وأمرهم أن يقدموا على آل عمر كثيرين غيرهم اقترح أسماءهم ، وذكر عائلاتهم . . وقال : « ضعوا عمر وقومه موضعهم » . . ! !

وعلم « بنو عدى » بهذا ، فذهبوا إليه راجين أن تظل أسماؤهم فى مقدمة الديوان كى ينالوا أنصباءهم والمال وَفْر ، وقالوا له : ألَسْنا أهل أمير المؤمنين . . ؟ فأجابهم عمر :

— « بخ بخ بنى عدى ، أردتم الأكل على ظهرى ، وأن أهَبَ حسناتى لكم ، لا والله لتأخذُنَّ مكانكم ولو جئتم آخر الناس » . .

إن القرابة من أمير المؤمنين ، لا تعنى كما أسلفنا الأثرة والحظوة إنما تعنى العرق والشظف . .

ولقد رفض أمير المؤمنين إلحاح أصحابه وإخوانه لكى يُولى ابنه عبد الله منصباً من مناصب الدولة . .

ولقد كانوا فى إلحاحهم مدفوعين بحرصهم الشديد على الانتفاع بمواهبه النادرة . .

ولكن « عمر » رفض كما رفض عند موته أن يرشحه للخلافة . . بل رفض أن يجعله ضمن الستة الذين رشحهم هو ليختاروا من بينهم خليفة قائلا : « حَسْبُ آل عمر أن يحاسب منهم واحد ، هو عمر » . . ! !

لكنْ يا أمير المؤمنين ، إن ولدك عبد الله هو التقى العادل ، فهل ذنبه ، وذنب الناس الذين ستسعدهم ولايته أنه ابن أمير المؤمنين . . ؟ !

طالما قيل هذا القول لعمر . . فيذكّر قائليه بأن عبد الله ليس هو التقى

العادل وحده . . وهناك فى المسلمين نُظَراء له فى العدل والتقوى ، فإذا آثره « عمر » عليهم يكون قد حابَى وجامَل . . !

ثم إن « عمر » رجل « قدوة » ، قبل أن يكون رجل « حكم » ؛ فإذا استعمل اليوم صالحىْ أهله . فأَيَّان يذهب إذا جاء من بعده حكام يُسرفون فى تولية أهليهم . ويقولون : لقد فعل هذا « عمر » . . ؟ !

من أجل ذلك وضع مبدأ جليلا فقال :

— « من استعمل رجلا لمودة أو قرابة ، لا يحمله على استعماله إلا ذلك . فقد خان الله ورسوله والمؤمنين » .

إنه إذا ولىَّ عبد الله ابنه عملا ، لن يفعل ، لمكان عبد الله منه ؛ بل لمحض استحقاقه وكفايته . ومع هذا يصر على موقفه . .

جلس يوماً بين أصحابه وقال :

— « أعيانى أهل الكوفة . . إن استعملت عليهم لَيِّناً استضعفوه وإن وليتهم القوى شكَوْه ، ولَودِدْتُ أنى وجدت قويًّا أميناً مسلماً ، أستعمله عليهم » .

فقال أحد جلسائه : أنا والله أدلك على القوى الأمين المسلم . .

قال عمر متحفزاً : من هو . . ؟

قال الرجل : عبد الله بن عمر .

فأجاب أمير المؤمنين قائلا : قاتلك الله . والله ما أردتَ الله بهذا . . . ثم اختار والياً آخر . . ! !

* * *

لقد اعتدنا أن نضع هذا السلوك المعجز لعمر . تحت عنوان الزهد

أو التقشف . . .

فعمر يجوع . ويتقشف فى مطعمه ، وملبسه ، ويحمل أهله معه على ذلك بدافع ، نُسميه زهداً . .

ولكن الحق . أن وراء الزهد ، حافزاً أبعد غوراً وأعمق جذوراً .

ذلك هو الاحترام الفريد لمسئوليته ، والتفانى الفذّ فى الإخلاص لتبعاته وواجبه .

إن للمسئولية فى ضميره الطاهر الحىّ . قَداسةً مطلقة ، وجميع الاعتبارات والمواقف ، تتكيف وَفق مقتضيات هذه المسئولية ، ولا تخضع هى لأى موقف أو اعتبار .

ولعلَّ من حظوظنا الوافية أن نطالع هذه الخطبة القيمة التى استهلَّ بها عهد خلافته :

— « . . بلغنى أن الناس هابوا شدتى ، وخافوا غِلظتى ، وقالوا : قد كان عمر يشتد ورسول الله بين أظهرنا ، ثم اشتد علينا ، وأبو بكر وَالِيناَ دُونه ، فكيف وقد صارت الأمور إليه . . ؟

« ألا من قال هذا فقد صدق ، فإنى كنت مع رسول الله عونَه وخادمَه . . وكان عليه السلام من لا يبلغ أحد صفته من اللين والرحمة ، وكان كما قال الله تعالى [بالْمُؤْمِنِينَ رَءوفٌ رَحِيمٌ] فكنت بين يديه سيفاً مسلولا حتى يُغمدنى ، أو يدَعنى فأمضى . . فلم أزل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك حتى توفاه الله وهو عنى راض . والحمد لله على ذلك كثيراً . وأنا به أسعد . .

« ثم وَلِىَ أمرَ المسلمين أبو بكر ، فكان من لا تنكرون دَعَته ، وكرمه ، ولينه ، فكنت خادمه وعونه . أخلط شدتى بلينه فأكون سيفاً مسلولا حتى يغمدنى فأمضى . فلم أزل معه كذلك حتى قبضه الله عز وجل وهو عنى

راض ، والحمد لله على ذلك كثيراً . وأنا به أسعد . .

« ثم إنى قد وليت أموركم أيها الناس ، فاعلموا أن تلك الشدة قد أضعِفَتْ ، ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدى ، فأما أهل السلامة والدين والقصد فأنا ألينُ لهم من بعضهم لبعض . ولستُ أدع أحداً يظلم أحداً . أو يعتدى عليه حتى أضع خده على الأرض ، حتى يُذعن للحق ، وإنى بعد شدتى تلك ، أضع خدى على الأرض لأهل العفاف ، وأهل الكفاف . .

« ولكم على أيها الناس خصال أذكرها لكم فخذونى بها :

لَكُم على ألا أجتبى شيئاً من خراجكم وما أفاء الله عليكم إلا من وجهه ، ولكم علىّ إذا وقع فى يدى ، ألا يخرج منى إلا فى حقه ، ولكم على أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم إن شاء الله تعالى ، وأسد ثغوركم ، ولكم علىّ ألا أُلقِيَكم فى المهالك ، وإذا غبتم فى البعوث فأنا أبو العيال حتى ترجعوا إليهم . . .

« فاتقوا الله وأعينونى على أنفسكمْ بكفّها عنى ، وأعينونى على نفسى بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإحضارى النصيحة فيما ولانى الله من أمركم . . » ! !

* * *

هذه الخطبة ، ليست أجمع خطب « عمر » . ولا أكثرها أَلَقاً ونوراً ولكنها فى هذا المقام تلقى ضياء غامراً على الحافز العميق الذى كان يحرك الرجل الكبير ويَهدى خطاه . .

فلقد كان ورسولُ الله حىّ ، سيفاً مسلولا على كل ما هو زيف وباطل ،

يضرب به الرسول ما يشاء . .

وكان وأبو بكر حي ، السيف المسلول نفسَه في يد خليفة رسول الله . . أي أنه كان جنديًّا ، قد يناقش قائده ، ولكنه آخر الأمر السميع المطيع . . أما اليوم ، فقد صار السيفَ والضاربَ معاً . . الجندي ، والقائد جميعاً . . ومسئوليته عن كل شيء مسئولية مباشرة . .

وهو لا يعد نفسه مسئولا أمام الناس ، ولا أمام التاريخ . ولا أمام شيء من هذه المصطلحات . بل هو مسئول أمام الحق المبين — الله الذي لا تخفى عليه خافية . . ! !

أجل — أمام الله العلي الكبير يحمل « عمر » المسئولية التي كان يحملها صاحباه — رسول الله ، وخليفته أبو بكر . .

* * *

وإذا كنا رأينا كيف تفوَّق بمسئولياته على كل خوالج النفس ، ورغبات الأهل . .

فلننظر الآن كيف باشَر مسئوليته تجاه الناس الذين استخلفه الله عليهم .

وهنا نلتقي مثلما التقينا من قبل ، وكما سنلتقي من بعد بالرجل الذي هو نسيجُ وحدِه . .

إنه يرى مسئوليته مباشِرة عن كل رجل في سِرْبه . . عن كل امرأة في بيتها . . عن كل رضيع في مهده . . ! !

وهو يبدأ مسئوليته تجاه الناس ، بأن يعيش في أدنى مستويات عيشهم . فإذا دُسَّت عليه لقمة متميزة قال كما قرأنا من قبل : « بئس الوالي إن

أنا طعمت طيبها ، وتركت للناس عظامها » . !

وأعجبُ من كل عجب ، أنه لم يسلك سلوكه هذا تجاه الأحياء وحدهم ، بل تجاه الأموات أيضاً . . ! !

فكان يرفض أن يظفر بنعيم لم يظفر به إخوانه الذين سبقوه إلى الله ، واستشهدوا فى سبيله قبل أن يمكّن للإسلام والمسلمين . .

حين زار الشام ، جيء له بطعام طيب ، مختلف ألوانه ، وبدلا من أن يقبل عليه ، وينعم بمذاقه ، رمَقه بعينين باكيتين وقال :

– « كُلُّ هذا لنا ، وقد مات إخواننا فقراء لا يشبعون من خبز الشعير » ؟ ؟ ! !

وهو يأخذ بمَكاظِم الجبارين العتاة حتى يخضعوا للحق . ويُوَطِّئوا الأكناف لإخوانهم الذين يتميزون عليهم .

وفى الوقت نفسه يضع خده هو على الأرض – كما سمعناه يخطب من قبل – لأهل العفاف وأهل الكفاف . .

وهو يحمل مسئولياته فوق كاهله . . ، ولا يوزعها على الآخرين الذين هم بمسئولياتهم مشغولون . .

فإذا تقدم منه أحد أصحابه ليريحه من عمل ، أو يشاركه فيه ، نَهَرَه قائلا : « أتحمل وزرى يوم القيامة » . . ؟ ! .

وحين نبصر الجوَّ النفسى المشحون بالاهتمام والحركة عندما تنادى « عمر » إحـدى مسئولياته ، نرى عالماً يموج ويتحرك ، وليس فرداً مجرد فرد . .

والحدَث العابر الذى لا يكاد يحسه أكثر الناس يقظة وتحفزاً وإنسانية . . كان « عمر » يرتجف منه ، ويحتشد له ، ويقيس عليه الأشباه

والنظائر ثم يضع تشريعاً ، ويسن قانوناً . .

قدم المدينة بعض التجار فى إحدى الأمْسيات ، وخيَّموا عند مشارفها ، فاصطحب أمير المؤمنين عبد الرحمن بن عوف ليتفقد أمر القافلة ، وكان الليل قد تصرَّم ، واقترب الهزيع الأخير منه . . وعند القافلة النائمة اتخذ « عمر » وصاحبه مجلساً على مقربة منها ، وقال « عمر » لعبد الرحمن : فلنمض بقية الليل هنا ، نحرس ضيوفنا . .

وإذْ هما جالسان ، سمع صوت بكاء صبى ، فانتبه « عمر » وصمت . . وانتظر أن يكفّ الصبى عن بكائه ، ولكنه تمادى فيه ، فمضى يسرع صوبه ، وحين اقترب منه وسمع أمه تُنَهْنِهُه ، قال لها : اتق الله ، وأحسنى إلى صبيك . . ! !

ثم عاد إلى مكانه . . وبعد حين عاود الصبى البكاء فهرول نحوه « عمر » ، ونادى أمه : قلت لك ، اتقِ الله أحسنى إلى صَبيّك . .

وعاد إلى مجلسه . بيد أنه لم يكد يستقر حتى زلزلَه مرة أخرى بكاء الصبى فذهب إلى أمه وقال لها : ويحك . . إنى لأَراك أُمَّ سوء . ما لِصَبيك لا يقر له قرار . . ؟ !

قالت ، وهى لا تعرف من تخاطب : يا عبد الله قد أَضجرتنى . . إنى أحمله على الفِطام فيأبى . .

سألها عمر : ولم تحملينه على الفطام . . ؟

قالت : لأن عمر لا يفرض إلا للفطيم . .

قال وأنفاسه تتَواثب : وكم له من العمر . . ؟

قالت : بضعة أشهر . .

قال : ويحك . . لا تُعجِليه . .

يقول صاحبه عبد الرحمن بن عوف : فصلّى بنا الفجر يومئذ ، وما يَستبين الناس قراءته من غَلَبة البكاء . فلما سلّم قال : « يابؤساً لعمر ! ! كم قتل من أولاد المسلمين » . . ؟ ! !

ثم أمر منادياً ينادى فى المدينة : « لا تعجلوا صبيانكم عن الفطام ، فإنا نفرض من بيت المال لكل مولود فى الإسلام » . .

ثم كتب بهذا إلى جميع ولاته فى الأمطار .

* * *

أمير للمؤمنين ، تدك جيوشه معاقل كسرى وقيصر . وهو هنا فى الساعات الأخيرة من الليل يحرس قافلة وفدت على المدينة . . ثم يؤرقه بكاء طفل ويزلزله ، حتى يَشْرَق بالدموع وهو يصلى بالناس ، ثم لا يعالج واقعة الحال هذه وحدها ، بل يضع فى التوِّ واللحظة قانوناً يستوعب كل حالاتها المشابهة . .

اهتمام عجيب بمشاكل الناس ، وممارسة فذة خارقة لمسئولية الحكم . . !

وفى عام الرمادة يسمع عن جماعة فى أقصى المدينة ، قد نزل بهم من الضر أكثر مما نزل بأهل المدينة كلها . . فيحمل فوق ظهره جرابين من دقيق ، ويحمل خادمه « أسلم » قربة مملوءة زيتاً ، ثم يهرولان إلى هناك يحملان النجدة والغوث .

وعندما يبلغان القوم ، يطرح أمير المؤمنين برداءه ويطهو بنفسه طعامهم حتى يشبعوا . . ثم يرسل خادمه ليعود إليه بإبل يحملهم على ظهورها إلى داخل المدينة حتى يكونوا بقرب منه ، وحتى ينزلوا مكاناً أطيب ، وينالوا رعاية أكثر . .

الناس . . الناس . . الناس . . ! ! !

هـذه الكلمة كانت الهتاف العلوى الذى يجلجل فى روع عمر آناء الليل وأطراف النهار .

حتى لنَراه وهو يجود بأنفاسه الطاهرة ، وجِراحُه النبيلة الشهيدة تَنْشَخِبُ دماً ، لا يشغله إلا أمر الناس . .

فيدعو بالستة الذين اختارهم . ليختاروا من بينهم الخليفة الجديد وإذ يحضر منهم على ، وعثمان ، وسعد ، يوصيهم وهو لا يقوَى على الكلام فيقول :

— « يا على . . إذا وليت من أمور الناس شيئاً ، فأعيذك بالله أن تحمل بنى هاشم على رقاب الناس . . ! »

— « يا عثمان . . إذا وليت من أمور الناس شيئاً ، فأعيذك بالله أن تحمل بنى أبى مُعَيط على رقاب الناس . . ! »

— « يا سعد . إذا وليت من أمور الناس شيئاً ، فأعيذك بالله أن تحمل أقاربك على رقاب الناس . . ! »

وفى العام الذى لقى الله فيه ، كان على موعد مع نفسه أن يطوف بجميع الأمصار ليتفقد أحوال الناس ويبلوَ أخبارهم . ولقد قال يوماً لأصحابه :

« لئن عشت إن شاء الله ، لأَسيرنّ فى الرعية حوْلا ، فإنى أعلم أن للناس حوائج تقطع دونى . . أمّا وُلاتهم فلا يرفعونها إلى . وأمّا هم فلا يصلون إلى . . أسير إلى الشام فأقيم شهرين ، وبالجزيرة شهرين ، وبمصر شهرين ، وبالبحرين شهرين ، وبالكوفة شهرين ، وبالبصرة شهرين . . واللهِ لَنعم الحول هذا » . . ! !

* * *

وتنقلنا مسئولية « عمر » عن الناس إلى مسئوليته عن الولاة والعمال الذين كان يَكِلِ إليهم مصاير الناس فى البلاد البعيدة والقريبة . .

فكيف كان « عمر » يباشر مسئوليته تجاه وُلاته ومعاونيه فى الحكم ؟ ؟

كان يباشرها على طريقته . . طريقته التى لا تتغير ، والتى لا نرى فى نماذجها مهما تتكاثر أدنى تفاوت . .

وكان يختارهم فى حرص من يختار مصيره . . ! !

إنه يعد نفسه مسئولا عن كل غلطة يرتكبها أحد ولاته ، علم بها عمر أم لم يعلم . .

ومن ثم ، فهو يقلب وجهه ، ويُعمل فكره ، ويَستخير ربه ، ويَستشير صحبه ، ويَستأنى ثم يستأنى قبل أن يختار عامله ومعاونه . . ! !

كان يقول لأصحابه :

— « أرأيتم إذا استعملت عليكم خير من أعلم ، ثم أمرته بالعدل أيبرئ ذلك ذمتى » . . . ؟ ؟

يقول أصحابه : نعم . .

فيقول : « كلا . . حتى أنظر فى عمله ، أعَمِل بما أمرته أم لا » .

ويقول : « أيما عامل لى ظلم أحداً ، وبلغتنى مظلمته فلم أغيرها . فأنا ظلمته » . . ! !

ويقول لخالد بن عرفطة :

— « إن نصيحتى لك وأنت عندى جالس ، كنصيحتى لمن هو بأقصى ثغر من ثغور المسلمين ، وذلك لِمَا طَوَّقنى الله من أمرهم ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من مات غاشاً لرعيته لم يُرَحْ رائحة الجنة » . . ! !

إن « عمر » يريد من ولاته أن يباشروا مسئولياتهم على المستوى نفسه

الذى يباشر فيه مسئولياته . .

وإذا كان ذلك عسيراً . . بل مستحيلا ، لأن « عمر » لا يتكرر ، فقد كان يبحث عن أقرب الناس مسافة من هذا المستوى . .

وهو لهذا ، يختارهم مُمعناً فى التحوط والدقة واليقظة . .

فهو – أولا – يرفض كل من يسعى إلى المنصب أو يطلبه لنفسه .

وإنه فى هذا لَمقتدٍ برسول الله عليه الصلاة والسلام ، إذ كان يقول : « إنا والله لا نُولِّى هذا الأمر أحداً يسأله أو يحرص عليه » .

هذه أولى خطوات « عمر » فى اختيار معاونيه . . استبعاد كل راغب فى المنصب ، طامح إليه ، لأن الذى يحمل شهوة الحكم يحمل شهوة التحكُّم . . والذين يطلبون أن يكونوا حكاماً وولاة ، لا يقدرون مسئولية الحكم تماماً ، وإلا لهربوا منه ، وزهدوا فيه . .

ذات يوم أسرَّ فى نفسه اختيار أحـد أصحابه ليجعله والياً على أحـد الأقاليم .

ولو صبر هذا الصحابى بضع ساعات ، لا استدعاه « عمر » ليقلده المنصب الذى رشحه له .

ولكن أخانا بادَرَ الأمور التى لم يكن يعرف عنها شيئاً ، وذهب إلى أمير المؤمنين يسأله أن يوليه إمارة . .

ويبتسم « عمر » لحكمة المقادير ، ويفكر قليلا ثم يقول لصاحبه :

– « قد كنا أردناك لذلك ، ولكن من يطلب هذا الأمر لا يُعان عليه ولا يُجاب إليه » . . ثم صرفه وولى غيره . . ! !

سنقول لأنفسنا . وأى بأس فى أن يطلب رجل لنفسه الحق فى عمل يثق من قدرته على مسئوليته ، وحفظ أمانته ؟ ؟

ألم يقل يوسف الصديق للملك : « اجْعلْنِى عَلَى خَزَائنِ الأرْضِ ، إنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ » . . ؟ ؟

أجل ، قال يوسف الصديق هذا ، بيد أنه حين تقدم طالباً ذلك المنصب ، كان تماماً كفدائى يخاطر بحياته . . كان كجندى الإطفاء يُلقى بنفسه فى أفواه اللهب ، وهو لا يدرى : أيعود مُعافىً ، أم يتحول هناك إلى رماد . . ؟ !

صحيح أنه طالب بمنصب رفيع ، بيد أن هذا المنصب ساعتئذ كان غُرماً لا غنماً ، وكانت مخاطره المحققة ، تفوق كثيراً مَباهجه المحتملة . .

كان هناك إفلاس ، ومجاعة ، وخراب ، وكل المسئولين يهربون مما جنَتْ أيديهم ، ثم يتقدم رجل لينقذ أزمة تستعصى على الإنقاذ .

هذا ليس طالب منصب ، بل عاشق الخطر ، وراكب الصعب . . ! !

علىَ أن « عمر » ، لم يكن بحاجة إلى أن يفلسف المسألة على هذا النسق . . فالأمر لديه فى غاية الوضوح . . إنه يريد والياً يرتفع إلى مستوى المسئولية كما يفهمها عمر . وأى واحد من هذا الطراز ، سيهرب من الولاية بدل أن يحرص عليها أويطلبها .

لقد هرب « عمر » مما هو أكثر من الولاية . . هرب من الخلافة إثر وفاة رسول الله . . ولولا أن طوَّقه بها « أبو بكر » فى لحظة لا تسمح بالتردد ، بل ولا بالتفكير ، لهرب منها أيضاً ولآثر كما قال : « أن يُضرب عنقه ولا يرى نفسه أميراً للمؤمنين » . . ! !

إن كل من يطلب الإمارة إذن ، يكون سيئ التقدير لتبعاتها ، وعُقْباها ، ومن ثم لا يراه « عمر » جديراً بها . .

هذا أول ما يتطلبه من ولاته . الزهد فى المنصب ، والفرار منه ، حتى

إذا جاءهم كَرها ، أخذوه مشفقين . . ! !

بعد هذا ، يختار لها « القويَّ الأمين » . .

ولا يكاد يختار الوالى حتى يأخذ بيده ويقول له :

– « إنى لم أستعملك على دماء المسلمين ، ولا على أعراضهم . ولكنى استعملتك لتقيم فيهم الصلاة ، وتَقسِم بينهم ، وتحكم فيهم بالعدل » .

ثم يعدّ له عداً ، النواهى التى عليه أن يتجنبها :

* لا تركب دابة مُطَهَّمة . .

* لا تلبس ثوباً رقيقاً . .

* لا تأكل طعاماً رافهاً . .

* لا تغلق بابك دون حوائج الناس . .

ولكن ، لماذا يحول « عمر » بين عماله ، وهذه الطيبات المباحة – الدابة المطهمة . . والثوب الرقيق . . واللقمة الطرية . . ؟ !

إنه يفعل ليعيشوا دائماً فى مستوى الشعب الكادح الفقير . .وليظلُّوا فى مكانهم الحق ، خداماً للناس ، لا سادة لهم . .

إنه لا يريد لِوُلاَتِه أن يُفتَنوا ، أو يترفوا ، أو ينالوا باسم الحكم أى بُلَهْنِيَةٍ ، أو امتياز .

من أجل هذا ، يتعقبهم فى كل مظاهر الزينة . والعلو ، فيذودهم عنها حتى لو يكون هذا المظهر دابة الركوب . .

يجب أن تكون هذه الدابة للعمل ، لا للخُيَلاء . . للخدمة لا للزَّهْو . . للضرورة ، لا للصلَف ولا للترف . . ! !

إنه لا يريد لولاته أن يفقدوا وَجاهتهم . . ولكنه يريد لهم الوجاهة المشروعة التى لا بَغى فيها ولا غرور . .

يريد أن يتفوقوا على الناس بأناقة النفس ، لا بأناقة اللباس ، وبمحامد الأفعال ، لا بالمظاهر الكاذبة ، والغبار الباطل . . ! ! !

انظروا كيف يرسم فى حِذق باهر ، صورة الأمير الذى يُحِب ، والحاكم الذى يُؤْثِر . .

ذات يوم قال لإخوانه : . . « دُلونى على رجل أَكِلُ إليه أمراً يهمنى . . قالوا : فلان . قال : لا حاجة لنا فيه . . قالوا : فمن تريد ؟

قال : « أريد رجلا إذا كان فى القوم وليس أميراً لهم ، بدا ، وكأنَّهُ أميرهم . . وإذا كان فيهم وهو أميرهم . بدا ، وكأنه واحد منهم » . . . ! !

يالَبَهَاءِ عقلك ، وذكاء روحك . . ! !

انظروا . .

هذا ما يريده « عمر » تماماً — أُمراءُ فى أخلاقهم وتواضعهم . وليس فى تبذخهم وعلوِّهم . .

أمراء ، لا يفسح الناس لهم الطريق ، ولا يتَخطَّوْن الرقاب . بل يمشون على الأرض هَوْناً ، ويعيشون قانعين . .

أمراء ، يشاركون الناس ولا يتميزون عليهم بغير العمل الصالح والجهد المبذول . .

ولقد تعلَّم هذا من خير المعلمين ، من رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام .

فما كان الرسول يرى أصحابه فى عمل إلا شاركَهم ، آخذاً أكثر جوانب العمل مشقة . .

يجمع يوماً الحطب لأصحابه وهم سَفْر ، فإذا قالوا : نحن نكفيك ذلك يا رسول الله ، قال لهم : « إنى أكره أن أتميَّز عليكم » . .

ويسمع بعض أصحابه يقولون له : « أنت سيدنا ، وابن سيدنا ، فينهاهم قائلا : « لا يَستغوِينكم الشيطان » . .

ويَقدُم على أصحابه ، فيقفون له ، فينهاهم قائلا : « لا تقوموا كما يقوم الأعاجم ، يعظم بعضهم بعضاً » . . ! !

* * *

ولا تقف مسئولية « عمر » عن ولاته عند حسن اختيارهم ، وحسن توجيههم . بل تنهض إلى إقامة كل الضمانات التى تجعل ولايتهم على الناس رحمة ، ورخاء ، وأمنا . .

وسبيلُه لهذا ، أن يجعل الحاكم تحت رقابة المحكوم . . وأن يحقق بنفسه وعلى الفور كل شكوى يشكوها مواطن من حاكم ، وأن يتتبع فى يقظة عارمة سلوك ولاته فى كل الأمصار . . ! !

فى موسم الحج ، وعلى ملأ من الأعداد الهائلة من حجاج المسلمين القادمين من كل بلد ، جمع عماله وولاته جميعاً ، ووقف خطيباً :

— « أيها الناس ، إنى والله لا أبعث عمالى إليكم ، ليضربوا أبشاركم ، ولا ليأخذوا أموالكم ، ولكن أبعثهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنة نبيكم ، فمن فُعل به سوى ذلك ، فليرفعه إلىَّ . فو الذى نفسى بيـــده لأمكننه من القصاص » . . ! !

ويقف « عمرو بن العاص » ، الذى رأى فى هذا الحضِّ خطراً على هيبة الولاة والحاكمين . فيقول : « أرأيتَ إن كان رجل من المسلمين والياً على رعية فأدّب بعضهم ، أتقتصُّ منه » . . ؟ ؟

ويجيب عمر : « إى والذى نفسى بيده لأفعلنّ ، فقد رأيت رسول الله

صلى الله عليه وسلم يُقِصُّ من نفسه ، ويقول :

« من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهرى فليقتدْ منه » . . ! !

و « عمر » يعنى دائماً ما يقول ، فما كانت تبلغه شبهة عن وال حتى يتوافر عليها فى يقظة وحزم .

يسأل وفداً زاره من أهل حمص عن واليهم « عبد الله بن قُرط » فيقولون : خير أمير يا أمير المؤمنين ، لولا أنه قد بنى لنفسه داراً فارهة . .

ويُهمهِم عمر : داراً فارهة . . ؟ يتشامَخُ بها على الناس ؟ بَخٍ بَخٍ لابن قرط . .

ثم يوفد إليه رسولا ، ويقول له : ابدأ بالدار فأَحرِق بابها . . . ثم ائت به إلىّ .

ويسافر الرسول إلى حمص ، ويعود بواليها فيمتنع عمر عن لقائه ثلاثة أيام . ثم فى اليوم الرابع يستقبله ويختار للقائه مكان « الحرَّة » حيث تعيش إبل الصدقة وأغنامها . .

ولا يكاد الرجل يقبل ، حتى يأمره « عمر » أن يخلع حلته ، ويلبس مكانها لباس الرعاة ويقول له : « هذا خير مما كان يلبس أبوك . . » ثم يناوله عصاً ، ويقول له : « وهذه خير من العصا التى كان أبوك يَهُشُّ بها على غنمه » . . ثم يشير بيده إلى الإبل ويقول له : « اتبعها وارْعَها يا عبد الله » . ! !

ثم بعد حين ، يستدعيه ، ويقول له معاتباً :

– هل أرسلتك لتشيد وتبنى . . ؟ ! ارجع إلى عملك ولا تعد لما فعلت أبداً . . ! !

هذا موقفه من رجل شهد له قومه بأنه خير أمير لولا أن ميَّز نفسه بدار رافهة . . ! !

ألا ترون أننا أمام أسطورة . . بل لو كانت أسطورة لصعب تصديقها . . ولكن لحسن حظ البشرية كلها أن « عمر » لم يكن أسطورة ؛ بل كان حقيقة ملأت الزمان والمكان . . وكان هدى من الله للناس يقول لهم : هكذا حاولوا أن تكونوا . .

* * *

وفى الوقت الذى تجمع الفرس وحلفاؤهم ، فى نهاوند . . وسعد بن أبى وقاص يتهيأ لمنازلة جيوشهم اللجبة ، تصل المدينة شكوى ضد سعد ، فيستدعيه « عمر » فوراً ، غير منتظر قليلا ريثما تنتهى المعركة الموشكة على البدء والاندلاع . . ذلك لأن « عمر » يرى أنه إذا كانت الشكوى صحيحة وصادقة ، فلن يُبقى على سعد . حتى لو خسر المسلمون المعركة كلها . . لأن النصر كما يقول « عمر » . إنما يبطئ عن كل قائد أو جيش يجترح السيئات . . ! !

وهكذا ، وفى هذا الظرف الدقيق الحرج ، يرسل « عمر » « محمد ابن مسلمة » إلى هناك ليفحص الشكوى فإن وجدها حقاً ، عاد بسعد إلى المدينة . .

ويذهب « محمد بن مسلمة » ويأخذ بيد سعد الفاتح الأعظم ، والوالى المهيب ، ويطوف به على الناس يسألهم الرأى فيه . . فقوم يقولون عنه خيراً . . . وآخرون يُحصون عليه بعض مآخذهم . . وأخيراً ، يصطحبه ابن مَسلمة إلى المدينة .

وإنا لنعرف نبأه مع حاكم مصر وفاتحها ، « عمرو بن العاص » حين وفد عليه من مصر ، فتىً مكروب يقول : يا أمير المؤمنين هذا مقام

العائذ بك . .

ويستوضحه النبأ فيعلم منه أن « محمد بن عمرو بن العاص » قد أوجعه ضرباً ، لأنه سابَقَه فسبَقه ، فعلا ظهره بالسوط وهو يقول : خذها ، وأنا ابن الأكرمين . . ! !

ويُرسِل أمير المؤمنين يدعو عمرو بن العاص وابنه محمداً ولندع « أنس بن مالك » يروى لنا النبأ كما شهده ورآه :

يقول : « . . فوالله إنّا لجلوسٌ عند عمر ، وإذا عمرو بن العاص يقبل فى إزار ورداء ، فجعل عمر يتلفت باحثاً عن ابنه محمد ، فإذا هو خلف أبيه . .

فقال : أين المصرى . . ؟

قال : ها أنذا يا أمير المؤمنين . .

قال عمر : خذ الدرّة ، واضرب بها ابن الأكرمين . .

« فضربه حتى أثْخنَه ونحن نشتهى أن يضربه ، فلم يَنْزِع حتى أحببنا أن ينزع من كثرة ما ضربه ، وعمر يقول : اضرب ابن الأكرمين ! !

ثم قال عمر للمصرى : « أَجِلْهَا على صَلْعة عمرو ؛ فوالله ما ضَربك إلا بفضل سلطانه . . ! ! !

قال الرجل : يا أمير المؤمنين ، قد استوفيت ، واشتفيت ، وضربت من ضربنى . .

قال عمر : أماَ والله لو ضربتَه ما حُلنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذى تدعه . .

ثم التفت إلى عمرو وقال : « يا عمرو ، متى تَعبَّدتُم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً . . ؟ ! !

والتفت إلى المصرى وقال له : « انصرف راشداً ، فإن رابك ريب فاكتب إلىّ . . ! ! »

هذا هو عمرو بن العاص ، صحابى من شيوخ الصحابة ، وحاكمُ إقليم من أكبر أقاليم الفتح الإسلامى ، ولا ينجو ولده من العقوبة ، بل وتكاد العقوبة تدرك عمرو بن العاص نفسه لولا عفو صاحب الحق . . . !

* * *

على أن هذه المواقف الصارمة الحازمة التى يقفها « عمر » من ولاته الذين قد يسيئون استعمال سلطانهم . . هذه المواقف تتحول إلى مشاهدَ أخرى يذوب فيها « عمر » حَناناً وغبطة حين يحقق مع أحد الولاة ، فينتهى بريئاً . .

ذات يوم تلقى شكَاةً ضد وال له ، هو « سعيد بن عامر الجُمَحِىّ » تتضمن ثلاثة مآخذ :

أولها : أنه لا يخرج إلى الناس حتى يتعالى النهار . .

ثانيها : أنه لا يجيب أحداً بليل . .

ثالثها : يغيب عن الناس كل شهر يوماً ، فلا يرى أحداً ولا يراه أحد . .

واستدعاه « عمر » ، وواجهه بالشَّاكِين ، وقال لهم تكلموا :

قالوا : لا يخرج إلينا حتى يرتفع النهار . .

ونظر أمير المؤمنين صَوْب سعيد وسأله أن يجيب . .

فقال : والله يا أمير المؤمنين . إنْ كنتُ لأكرهُ ذِكر السبب . ليس لأهلى خادم ، فأنا أعجن معهم عجينى ، ثم أجلس حتى يختمر ، ثم أخبز خبزى ، ثم أتوضأ وأخرج إليهم . .

وأشرقت أسارير « عمر » ، فقد بدَا أنه لن يُساء فى رجل وثق فى دينه ، واختاره بنفسه . .

ثم قال للشاكين : وماذا أيضاً . . ؟

قالوا : لا يجيب أحداً بليل .

قال سعيد : والله ، إن كنت لأكره ذِكره ، ، إنى جعلت النهار لهم ، وجعلت الليل لله عز وجل . .

قال عمر : وماذا أيضاً تشكون منه . . . ؟

قالوا : إن له فى الشهر يوماً لا يقابل فيه أحداً . .

وقال سعيد : ليس لى خادم يغسل ثيابى ، فنى هذا اليوم أغسلها ، وأنتظرها حتى تجف ، ثم أخرج إليهم آخر النهار . .

قال عمر وقد غمره الحبور والبشر : الحمد لله الذى لم يُخيب فِراستى . . ! !

إن سعادته تكون غامرة ، حين تخيب شكوى ، وتَظهر براءة لأنه يريد أن يرى ولاته كلهم ، بل والناس جميعاً متفوقين على الضعف ، مُبرَّأين من العيب . .

أرسل « عمير بن سعد » والياً على حمص ، فمكث هناك عاماً لا يرسل خَراجَها . ولا تصل منه أية أنباء ، فقال « عمر » لكاتبه :

– « اكتب إلى عمير ، فإنى أخاف أن يكون خاننا » . . . وأرسل إليه يستدعيه . .

وذات يوم شهدت شوارع المدينة رجلا أشعث أغبر ، تَغْشاه وَعثاء السفر ، يكاد يقتلع قدميه من الأرض اقتلاعاً من طول ما لاقى من عَناء ، وبذل من جهد . . على كتفه اليمنى جراب وقصعة . . وعلى كتفه اليسرى

قربة صغيرة فيها ماء . . وإنه ليتوكأ على عصاً لا يؤودها حمله الضامر الوَهْنان . .

ودَلَف إلى مجلس « عمر » فى خطوات مُتَّئِدة . .

– « السلام عليك يا أمير المؤمنين » . .

ويرد « عمر » السلام ، ثم يسأله وقد آلمه ما رآه عليه من جهد وإعياء

– ما شأنك يا عمير ؟ ؟

– شأنى ما تَرى . . ألست ترانى صحيح البدن ، طاهر الدم ، معى الدنيا أجرها بقرنها . . ؟ !

قال عمر : وما معك . . ؟

قال عمير : معى جرابى أحمل فيه زادى ، وقصعتى آكل فيها ، وإداوتى ، أحمل فيها وضوئى وشرابى ، وعصاى أتوكأ عليها . وأجاهد بها عدواً إن عَرَض ، فوالله ما الدنيا إلا تبع لمتاعى . .

قال عمر : أجئت ماشياً . . ؟ ؟

– نعم . .

أوَ لم تجد من يتبرع لك بدابة تركبها . . ؟ ؟

– إنهم لم يفعلوا ، وإنى لم أسألهم . . !

– فماذا عملت فيما عهدنا إليك به ؟ ؟

– أتيتُ البلد الذى بعثتنى إليه ، فجمعتُ صُلحاء أهله ، ووليتهم جِباية فيئهم وأموالهم . حتى إذا جمعوها وضعتُها فى مَواضعها ، ولو بقى لك منها شيء لأتيتك به . .

– فما جئتَنا بشيء . . ؟

— لا . . .

قال « عمر » وهو منبهر سعيد : « جَدِّدوا لعمير عهداً » . .

قال عمير : « تلك أيام قد خلت ، لا عملتُ لك ولا لأحد بعدك » ! !

* * *

والويل الشديد للوالى الذى يفكر فى أن يهدى لعمر هدية مّا . .

والحق أنهم جميعاً كانوا من الفطنة بحيث لم يتورطوا قط فى أمر كهذا . . ! !

ولم يفعله منهم مرة واحدة سوى الرجل الصالح الطيب « أبى موسى الأشعرى » . .

فذات يوم عاد أمير المؤمنين إلى داره ، فوجد رقعة من سجاد لا تزيد على متر ، وبعض متر ، فسأل زوجه « عاتكة » . .

— « أنَّى لك هذه . . ؟ ؟ »

قالت : أهداها إلينا أبو موسى الأشعرى .

— « أبو موسى . . ؟ ؟ ايتونى به » . . ! !

ويجيء أبو موسى ، تَسبقه مَخاوفه ، ولا يكاد يقترب من « عمر » ويلمح « السجادة » فى يمينه ، « والتحفز » فى وجهه حتى يبادره القول « لا تَعجَلْ علىَّ يا أمير المؤمنين » . .

ولكن أمير المؤمنين ، يُعاجله ، ويلفح بالسجادة رأسه ويقول له :

— ما يحملك على أن تهدى إلينا ؟ خذها فلا حاجة لنا فيها . . ! !

والويل كذلك . لمن يطمع فى أن يتسوَّر مسئوليات هذا الرجل الكبير بشفاعة يشفعها فى غير حق . .

حدَث يوماً أن أنزل بأحد ولاته جزاء ، فانتهزت زوجه « عائكة » ساعة من ساعات فراغه وهدوئه ، وشفعت للرجل . ولم تزد على أن قالت : يا أمير المؤمنين ، فيمَ وجَدْتَ عليه . . ؟

هنالك انتفض « عمر » ؛ كأنما انهدَّ من دين الله ركن ، وصاح فيها :

— « يا عدوة الله ، وفيم أنت وهذا » . . . ؟ !

لو كان هذا الموقف من زوجته مشورة ورأياً ، لتقبل المشورة ، وبحَث الرأى ، فسنراه بعد حين ينحنى فى إعجاب وخشوع لسيدة عارضت رأيه فى تحديد المهور . .

أما هنا ، فقد تصور « عمر » الموقف على أنه تدخل فى المسئولية من غير مسئول ، ولون من الشفاعة أو الوساطة لا يسكت « عمر » عليه ، ولا يتسامح معه . .

هذه مسئوليته تجاه ولاته . .

فلننظر مسئوليته تجاه أموال الأمة . . وإنهـا لمسئولية تحير العقول وتبهر الأفئدة .

ولنبدأ بهذا النبأ .

يقول عبد الله بن عامر بن ربيعة :

— « . . صحبت عمر بن الخطاب من المدينة إلى مكة فى الحج ، ثم رجعنا ، فما ضُرب له فسطاط ، ولا خِباء ؛ ولا كان له بناء يستظل به . إنما يلقى كساء على شجرة فيستظل تحته » . . ! !

ويقول بشار بن نمير :

« . . وسألنى عمر : كم أنفقنا فى حجتنا هذه ؟ قلت : خمسة عشر ديناراً . . فقال : لقد أسرفنا فى هذا المال » . . . ! !

أرأيتم إلى الرجل الذى وُضِعَتْ تحت عتبة خزائنه أموال كسرى وقيصر ، ثم يخرج إلى الحج وسط صحراء ملتهبة ، فلا يهيئ لنفسه من ضرورات الرحلة شيئاً . . . ؟ ! يذوق وَقْدة الحر ، وقيظ الجبال المستَعِرَة . مثلما تذوقه كافة الناس ، وينفق خلال رحلته كلها خمسة عشر ديناراً . ثم يقول : لقد أسرفنا . . ؟ !

قبل أن يلى أمور المؤمنين ويصير أميرهم ، كان تاجراً يكسب عيشه ورزق أهله وعياله من التجارة ، فلما تفرغ لمهمته الجديدة ، فرض لنفسه من بيت المال ما يعيش به هو وعائلته فى مستوى الكفاف . . .

وكان مع الأيام تزداد تبعاته ، وتزداد احتياجاته ونفقاته ، ويرفع كلما هب الرخاء رواتب جميع المسلمين فى المدينة وخارجها ، لكنه لا يفكر فى أن يزيد نفسه درهماً . . حتى سمع أصحابه يوماً أن أمير المؤمنين يقترض ليعيش ، فاجتمع نفر من الصحابة معهم عثمان ، وعلى وطلحة ، والزبير ، واتفقوا على أن يتحدثوا معه ، ويطلبوا إليه أن يزيد فى راتبه ، ومخصَّصاته ، لكنهم عادوا وتهيَّبوا محادثته ، لأنهم يعرفون أنه فى هذه المسألة بالذات شديد الوطأة ، لافِحُ الغضب . .

قال عثمان : فلنَستَبرئ ما عنده من وراء وراء . . . واتجهوا إلى حفصة بنت عمر ، واستكتموها أمرهم ، وطلبوا إليها أن تستطلع أمر أبيها . .

وذهبت حفصة إلى عمر متهيبة ، وأخذت تسوق الحديث بحذر ورفق .

فقال عمر : من بعثك إلىَّ بهذا . . ؟

قالت : لا أحد . .

قال : بل بعثك بهذا قوم ، لو عرفتهم لحاسبتهم . .

ثم قال لابنته : لقد كنت زوجة لرسول الله فماذا كان يقتنى فى بيتك من الملبس . . . ؟

قالت : ثوبين اثنين . . ! !

قال : فما أطيب طعمة رأيتيه يأكلها . . ؟

قالت : خبز شعير طرى مثْرود بالسمن . .

قال : فما أوطأ فراش كان له فى بيتك . . ؟

قالت : كساء ثخين . كنا نبسطه فى الصيف ، فإذا كان الشتاء بسطنا نصفه . . وتدثرنا بنصفه . . ! !

قال يا حفصة : « فأبلغى الذين أرسلوك إلى . أن مَثلى ومثَل صاحِبَىَّ – الرسول وأبى بكر – كثلاثة سلكوا طريقاً . فمضى الأول وقد تزوَّد فبلَغ المنزل . . ثم اتبعه الآخر ، فسلك طريقه فأفضى إليه . . ثم الثالث ، فإن لزم طريقهما ورضى بزادهما أُلحق بهما . . وإن سلك غير طريقهما لم يجتمع بهما » . . ! ! !

أهناك كلام يصلح أن يكون تعليقاً على هذا المشهد الفذ العجيب . . ؟ ! كلا . . فلندعه بدون تعليق . . ! ! !

* * *

وكانت القيامة تقوم إذا سمع « عمر » أن درهماً واحداً من الأموال العامة قد اختُلِس ، أو انتُهب ، أو أنفق فى ترف أو إسراف . .

كان يرتجف ، ويُرجِف ، كأنَّ خزائن المال كلها قد ضاعت ، وليس درهما أو بعض درهم . . ! !

وكان يُقسم لو أن بعيراً من إبل الصدقة ضاعت على ضفاف دجلة

أو الفرات ، وعمر بالمدينة ، لخاف أن يسأله الله عنه . . ! !

وفى يوم صائف قائظ يكاد حره يذيب الجبال ، أطل « عثمان بن عفان » من بناية له بالعالية ، فرأى رجلا يسوق أمامه بعيرين صغيرين والهواء الساخن يغشاه كَلفحِ السَّمُوم . .

فقال محدثاً نفسه : ما على هذا الرجل لو أقام بالمدينة حتى يُبرد . ؟ وأمر خادمه أن ينظر مَن هذا الرجل العابر من بعيد ، والذى تخفى الزوبعة والرمال السافيات معالمه . .

ونظر الخادم من فُرجة الباب ، فقال : أرى رجلا معمماً بردائه يسوق بَكْرَيْن أمامه . وانتظر حتى اقترب الرجل ، فعرفه الخادم وصاح : إنه عمر . . إنه أمير المؤمنين . . ! !

فأخرج عثمان رأسه من كُوّة صغيرة متوقياً سخونة الريح ، ونادى :
– ما أخرجك هذه الساعة يا أمير المؤمنين ؟

أجاب عمر : بَكران من إبل الصدقة ، تخلفا عن الحمى – المرعى – وخشيت أن يضيعا ، فيسألنى الله عنهما . . ! !

قال عثمان : هلم إلى الظل والماء ، ونحن نكفيك هذا الأمر

فقال له عمر : عد إلى ظلك يا عثمان . .

قال : عندنا من يكفيك هذا الأمر يا أمير المؤمنين . .

قال مرة أخرى : عد إلى ظلك يا عثمان . . ومضى لسبيله والحر يصهر الصخر . .

فقال عثمان مأخوذاً ومبهوراً : « من أراد أن ينظر إلى القوىِّ الأمين ، فلينظر إلى عمر . . » ! ! !

والقوى الأمين يباشر مسئولياته المالية . مباشرة ذكيةً عميقة فهو لا يُعنىَ

بالسهر على حفظ أموال الأمة فحسب ، بل ويُعنىَ بالعمل على تنميتها ، وإرباء الدخل القومى بكل سبيل ممكنة . .

* فهو – مثلا – يقاوم فكرة توزيع أرض السواد على الفاتحين لأن ذلك يخلق طبقة محتكِرة ، وفى الوقت نفسه ، عاجزة عن خدمة الأرض ، غير خبيرة بزراعتها ، ويترك الأرض تحت أيدى زارعيها ، مكتفياً بالضرائب التى تدفع لبيت المال ، ثم ينال كل مسلم حظه منها . .

* وهو يشجع على إحياء الأرض الموات التى لا صاحب لها ، والتى قال فيها الرسول عليه السلام « من أحيا أرضاً ميتة فهى له » . .

وحين يرى أمير المؤمنين أناساً يضعون أيديهم على هذه الأرض ، ويُسوِّرونها ، ثم يهملون استصلاحها وزراعتها ، يسن قانوناً يمنح « واضع اليد » فرصة مداها ثلاث سنوات فإذا عجز خلالها عن إحياء الأرض وتحويلها إلى حقل ، أو بستان ، أو مرعى ، نُحِّى عنها ، وأعطيت لغيره من القادرين . .

* وهو كذلك يحض المسلمين على الكسب المشروع ، فيغريهم بالتجارة الشريفة النظيفة ، قائلا لهم : غداً سيكون لكم أبناء وحفَدة ، فماذا يغنى عنكم هذا الذى بأيديكم . . ؟ !

* وهو يعنى عناية خاصة بالثروة الحيوانية ، فيخصص للماشية مرعى خصيباً رحيباً ، يرعى المسلمون فيه ماشيتهم بغير مقابل ، وإنه ليتعهد هذا المرعى دائماً ، وقلما كان يوم يمر دون أن يرى الناس « عمر » ، قد خرج منتصف النهار ، واضعاً ثوبه فوق رأسه ليقيه من الشمس ، قاصداً أرض الحمى والمرعى ، يتعاهدها ويتفقدها ، ويحذر حارسها من أن يسمح لأحد

أن يَعضِد شيئاً من شجرها ، أو أن يضرب فيها بفأس . . ! !

* * *

ولا يخطر بالبال ونحن نتحدث عن المال وعن الدخل القومى أيام عمر ، أننا نتحدث عن أموال شحيحة وموارد ضَحْلة ، فإن « عمر » لم يمت إلا بعد أن كان يحرك يده القوية الأمينة فى دخل من أضخم الدخول يومئذ بعد أن آلت إلى الإسلام معظم ممتلكات الروم والفرس . . ! !

ولم يمت « عمر » حتى كان هناك لكل فرد راتب سنوى يكفيه أو يقارب كفايته ، لا فى عاصمة الدولة وحدها ، وهى المدينة ، بل فى كل أقطار الإسلام . . ! ! !

يقول له خالد بن عرفطة :

– « يا أمير المؤمنين تركتُ الناس يسألون الله أن يزيد فى عمرك من أعمارهم . . ما وَطِئَ أحد القادسية إلا وعطاؤه ألفان ، أو خمس عشرة مائة . وما من مولود يولد إلا ألحق فى مائة وجريبين كل شهر ذكراً كان أو أنثى . وما يبلغ لنا ولد إلا ألحق على خمسمائة أو ستمائة » . . ! !

وحِرص عمر على تنمية الثروة ، لم يحمله قط على سلوك سبيل فيها جشع أو إرهاق . .

فالثروة عند عمر ، فى خدمة الإنسان ، وليس الإنسان فى خدمة الثروة . . ! !

لهذا ، كان يُنزل غضبه الشديد على كل وال يحرم أهل ولايته لكى يرفع إلى المدينة خَراجاً كبيراً يظن أنه يُكسبه رضاء أمير المؤمنين . .

وكان يأمر أن تقسم خيرات البلد – أىّ بلد – على أهلها أولا ، فإذا

بلغوا كفايتهم . رفع إلى عاصمة الدولة نصيبها . .

وكان يأمر عماله أن يتقاضوا الضرائب فى رفق وعدل ورحمة .

حُمل إليه يوماً مال وفير من أحد الأقاليم ، فسأل عن مصدره وعن سر وفرته وكثرته ، فلما علم أنه من ضريبة الزكاة التى يدفعها المسلمون ، وضريبة الجزية التى يدفعها أهل الكتاب ، قال وهو ينظر إليها كثيرة عارمة :

– إنى لأظنكم قد أهلكتم الناس . .

– قالوا : لا والله ، ما أخذنا إلا صَفْواً عَفْواً . . .

قال : بلا سوط ، ولا نوط . . ؟ ؟

قالوا : نعم . .

قال ووجهه يتهلل ويُشرِق : « الحمد لله الذى لم يجعل ذلك علىَّ ولا فى سلطانى » . . ! !

وكان يُعفى من ضريبة أهل الكتاب ، كل من عليه دين يستغرق ماله . ذلك لأنها لم تكن ضريبة إذلال ، بل ضريبة دخل ، فإذا عجز عنها دافعها ، وضعت عنه فوراً . . ! !

وبعد . . فهذا هو « عمر » ، الحاكم المسئول . . وهذه هى طريقته فى تحمل مسئولياته جميعها .

هذا هو الرجل الذى كانت جيوشه تُدِيل مظالم الروم والفرس وتدكُّها دكًّا ، بينما هو يسير فى طرقات المدينة لابساً ثوباً به إحدى وعشرون رقعة . . ويبطئ عن المسلمين يوماً فى صلاة الجمعة ثم يعتذر إليهم حين يصعد المنبر قائلا :

– « حبَسنى قميصى هذا ، لم يكن لى قميص غيره » . . ؟ ؟ ؟

إن مسئولياته المباركة دفعته إلى نهايات الطرق ، وقمم المثل ؛ فجاءت تصرفاته كلها تمثل أقصى ما يستطيع الكمال الإنسانى أن يبلغه . .

* فَتِجاهَ مسئوليته عن نفسه وأهله ، يُحمّلهم كل مغارم الحكم ويحرمهم من كل مغانمه . . ! !

* وتجاه ، وُلاته ومعاونيه ، يختارهم بنفسه . ويُلزمهم صراطاً مستقيما أحدَّ من الشفرة ، وأرقّ من الشعرة . . ! !

* وتجاه أموال الأمة ، يبلغ أقصى درجات الحِفاظ عليها ، والزهد فيهـا . . ! !

* وتجاه الجبارين العتاة ، يبلغ أقصى أسباب الشدة والحزم . . ! !

* وتجاه الضعفاء والبسطاء يبلغ غاية المدى فى الحدَب واللين . . ! !

إن مسئوليته تقوده . وإنه لَيباشرها بروح المُخْبِت العابد الأَوّاب . .

وإن عظمة سلوكه ، كرجل مسئول ، لا تتمثل فى العجالة التى سردناها إلا كما يتمثل ضوء الشمس فى الشعاعة المتسلسلة من حَنايا النافذة . . ! ! !

ألاَ وإن عمر الحاكم ، ليتعب كل حكام التاريخ ، ويجعل مسئوليتهم فادحة وكبيرة . .

ذلك أنه لم يكن إلاهاً ولا ملكاً ، ولا رسولاً يوحىَ إليه . ، إنما كان فرداً من الناس يجتهد رأيه ، وينهض بعزمه . ولقد استطاع أن يبلغ ذلك الشأو البعيـد فى عدله ، وفى رحمته ، وفى أمانته ، فما عـذر الآخرين إذا قعدت بهم عزائمهم ؟ ! . . .

إن « عمر » الحاكم ، حجة الله على كل حاكم . .

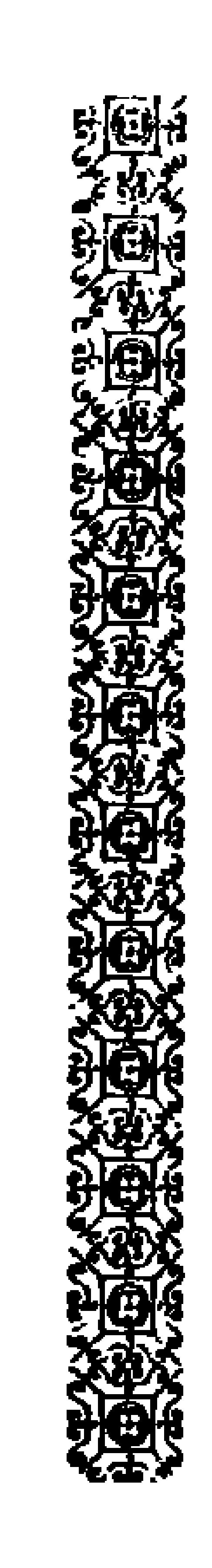
فإذا قال حاكم مّا ، ساعة حسابه : يا رب عجزت . .

قال الله له : ولماذا لم يعجز عمر . . ؟ ؟ ! !

الفصل الرابع

ولا خير فينا إذا لم نَسْمعها





لم يكن أمير المؤمنين يحمل مسئوليته حُملان رجل مفتون بنبوغه صَلِفٍ بمكانـه ، مُسْتَعلٍ بسُلْطانه .

بل كان يحملها بضمير الأمين على العهد . الباحث عن الحق ، المستنهض وجود الآخرين وتفكيرهم ليأخذوا مكانهم معه ، ويُنضجوا بآرائهم رأيه ، ويُعاونوا بُرشدهم رُشده . .

ولقد اقتضاه هذا ، أن يُقدّس الشورى ، ويحنى رأسه العالى فى خشوع وتهلل لكل معارضة شجاعة صادقة . .

فإذا بهرنا جلال المسئولية عند « عمر » ، وسُموقها الصاعد فى السماء ، فلنضع أعيننا على القاعدة التى استقرّ فوقها هذا البناء العملاق . — ألا وهى الشورى والمعارضة .

وإنه لأمر عجيب حقًّا أن يرفع لواء الرأى والمعارضة إلى المدى البعيد الذى سنراه ، رجل يؤمن بالنصوص إيماناً مطلقاً . . . رجل يخاف أن يفسر الآية من القرآن ، خشية أن يُحملها من رأيـه مالا تحتمل . . !

رجل لا يبيح لنفسه أن ينحرف قِيدَ أنملة عن المنهج الموضوع ، والخطة المرسومة ، وبعبارة واحدةٍ : رجلُ طاعةٍ ، وإيمان ، ومُتابَعَة . . ! ! !

ولكن العجب ، أن نرى فى هذه الظاهرة أيَّ عجب . .

فالذين يعرفون « محمداً » . ودين محمد معرفة سوية عاقلة ، يعرفون أن احترام النّص ، لا يعنى إهدار الرأى . وأن الطاعة المؤمنة ، لا تنفصل عن المعارضة الأمينة . .

ثم إن « عمر » لم يكن بطبيعته رجل مُسايرة . صحيح أنه رجل إيمان وطاعة كما ذكرنا . .

ولكنها الطاعة والإيمان والمتابعة التى يفرضها الاقتناع الوثيق

وهو قد اقتنع بالرسول وآمن به . . ومن ثم فهو يقفو أثره فى غير تردد أو التفات . .

وإنه لَيناقش الأمور التى تحتاج إلى مناقشة . . . ويُسلِّم تسليما لقضايا لا يفهم – أحياناً – حكمتّها ، ولكنه مقتنع سلفاً بالرسول الأمين الذى جاء بها . .

يُقبِّل الحجر الأسود فى الكعبة ، ثم يقول كأنه يخاطبه :

– « إنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ووالله لولا أنى رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك » . . ! !

ويُهرول كاشفاً عن منكبيه ، ويقول :

– « فيم هذا الرَّمَلان ، – الهرولة – والكشف عن المناكب ، وقد أظهر الله الإسلام ونفى الكفر ؟ ومع هذا لا ندع شيئاً كنا نفعله فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

بل إنه ليعمد إلى ميزاب فى دار العباس فيقتلعه من مكانه إذْ كان

ماء المطر يسيل منه إلى فِناء المسجد . ولكن لا يكاد العباس يخبره أن الرسول هو الذى وضع هذا الميزاب مكانه ، حتى يسارع « عمر » ، فيجيء بالميزاب ، ويقسم على العباس لَيقفن فوق منكبيه – منكبي عمر – ويعيد الميزاب إلى حيث وضعته يد الرسول من قبل . . ! !

وإنه لَيُسأل عن تفسير الآية الكريمة : « والذَّارياتِ ذَرْواً فالحامِلاَت وِقْراً » فيقول : الذاريات ذرواً ، هى الريح . . . ولولا أنى سمعت رسول الله يقوله ما قلته ، والحاملات وقراً ، هى السحب . ولولا أنى سمعت رسول الله صلى عليه وسلم يقوله ما قلته . . ! !

إلى هذا الحد كان « عمر » وقافاً عند النصوص والتعاليم ، ملتزماً التأسِّى والقدوة .

ومع هذا ، فقد آمن بالشورى إيماناً مماثلا لإيمانه بالنص والقدوة – والشورى رأى ومعارضة . .

ولست أعرف شيئاً يرفع من قدر الشورى فى كل عصور التاريخ كما يرفع من قدرها إيمان « عمر » بها . وأسلوبه فى تطبيقها . .

إن تطور الحياة السياسية فى المدينة لم يكن يومئذ قد أَذِن للمؤسسات الديمقراطية أن تظهر ، من « برلمان » وغيره . .

ومع هذا فقد ظفرت الديمقراطية من ذلك الرجل ، وفى تلك البيئة وذلك العهد . بخير فرص التألق والازدهار . .

لم يحاول عمر قط أن يفرض رأيه ، أو أن يمُلى مشيئته ، ولم ينفرد ساعة من نهار بحكم الناس دون أن يشركهم معه فى مسئولية هذا الحكم مشاركة فَعّالة صادقة . .

والرائع الباهر فيه ، أنه لم يكن يفعل ذلك تواضعاً أو تفضُّلا . . بل

سجية ، وفطرة ، وواجباً . .

إذا كانت القضية التى يريد عمر أن يفصل فيها ، لها فى كتاب الله بيان أنجز « عمر » كلمة الله . .

وإذا كانت من المشاكل الطارئة والقضايا الجديدة التى ليس لها فى الكتاب تفصيل ، لم يعتسف « عمر » ولم يتكلف ، ولم يضع الآية الكريمة : « ما فَرَّطنا فى الكتاب من شيء » فى غير موضعها .

بل يعمد من فوره إلى الرأى والشورى وتقليب وجوه النظر . .

والرأى عنده ، ليس التماساً للموافقة ، بل التماساً للحقيقة ولطالما كان يقول للناس :

– « لا تقولوا الرأى الذى تظنونه يوافق هواى . وقولوا الرأى الذى تحسبونه يوافق الحق » . .

ولْنطالع هذا المشهد من مشاهد شُوراه :

– حين حرر المسلمون بلاد العراق من حكم الفرس ، ودخل أكثر أهلها فى دين الله ، رأى « عمر » ألا يقسم أرضها الزراعية بين المجاهدين ، وأن تظل كما هى بأيدى أصحابها ، ثم ترد الضرائب المأخوذة عليها إلى بيت المال ، فتقسم بين الناس جميعاً كل منهم ونصيبه المفروض .

وكان يرى أن تقسيم الأرض بين المجاهدين ، سيقعد بهم عن الجهاد أولا ، وينقص غلَّة الأرض لضعف خبرة المجاهدين بالزراعة ثانياً ، ويخلق فى الإسلام طبقة من الإقطاعيين والمحتكرين ثالثاً ، كما أنه سيدَع الآخرين الذين لم يتملكوا ، ضائعين ، ويحرم الأجيال الوافدة من حقها ورزقها .

وعارض رأيه هذا نفر من الصحابة .

وكانوا كلما علا صوتهم ، واحتدَّت معارضتهم ، قال « عمر » فى هدوء :

« إنما أقول رأيي الذى رأيته » . .

وانفض الجمع من غير اتفاق على كلمة . .

وفى اجتماع آخر ، وكان « عمر » قد دعا فريقاً من الأنصار المشهود لهم بالحُنكة ونضج التجربة . فُتح باب المناقشة ، وخشى « عمر » أن يجامله أحد فى رأيه بوصفه أمير المؤمنين . فبدأ الحديث قائلا :

« إنى دعوتكم لتُشاركونى أمانةَ ما حملتُ من أموركم ، فإنى واحد كأحدكم ، وأنتم اليوم تقرون بالحق . خالفنى من خالفنى ، ووافقنى مَن وافقنى . ولستُ أريد أن تتبعوا هواى ، فمعكم من الله كتاب ينطق بالحق . فو الله لئن كنتُ نطقت بأمر أريده ، فما أريد به إلا الحق » . . .

* * *

والشورى ، والمعارضة عند أمير المؤمنين ، هما جناحا الحكم الصالح القويم ، وهما رِئَتا كل حكم سديد .

من أجل هذا ، لا يكاد يلى الأمر ، ويتسمَّع همس الناس حول شدته وصرامته حتى يخلو بنفسه مفكراً ، ويدخل عليه « حُذَيفة » فيجده مهموم النفس باكى العين . فيسأله : ماذا يا أمير المؤمنين ؟ ؟

فيجيب عمر : إنى أخاف أن أخطئ فلا يردنى أحد منكم تعظيماً لى . .

يقول حذيفة ، فقلت له :

« والله لو رأيناك خرجت عن الحق . لرددناك إليه » .

فيفرح « عمر » ، ويستبشر ويقول :

« الحمد لله الذى جعل لى أصحاباً يُقوموننى إذا اعوججت » . .

إن أعظم مظاهر التكريم للمعارضة ، نراها فى مواقف هذا العاهل

الفذ منها . . فى ولائه الوثيق لها ، وتوفير كل فرص الطمأنينة والأمن بل الإكبار لذويها . .

يصعد المنبر يوماً فيقول :

«يا معشر المسلمين ، ماذا تقولون لو مِلْتُ برأسى إلى الدنيا هكذا» . . ؟ ؟

فيشق الصفوفَ رجل ويقول وهو يلوح بذراعه كأنها حُسام ممشوق :

« إذن نقول بالسيف هكذا . .

فيسأله عمر : إيَّاى تعنى بقولك . . ؟ ؟

فيجيب الرجل : نعم إياك أعْنى بقولى . . !

فتُضىء الفرحة وجه « عمر » ويقول :

« رحمك الله . . . والحمد لله الذى جعل فيكم من يقوِّم عوجى »..! !

لم يكن هذا الموقف من أمير المؤمنين موقفاً استعراضيًّا ، فعمر أكثر قوة وأمانة ، من أن يلجأ لمثل هذه المواقف ، إنما كان سلوكاً صادقاً ، ونهجاً تلقائيًّا مخلصاً ، ينشد « عمر » من ورائه الوصول إلى الحق والطمأنينة إلى أنه يحكم أمة من الأسُود ، لا قَطِيعاً من النعاج . . . ! !

إن « عمر » حريص على أن يمكن الناس – جميع الناس – من حقهم فى ممارسة الأمر معه وأخذ مكانهم إلى جانبه .

ولو أنه بطش بالمعارضة ، ولو مرة ، إذن لبَاءت الشورى فى عهده بخِذلان كبير ، لكنه فعل نقيض هذا تماماً . . أقْصَى عنه أهل المُجاملة والمُداهنة ، ورفع مكاناً عالياً أولئك الذين يُناقشون ، ويعارضون . ويقولون : إلى أين . . ؟ ولماذا . . ؟

وكان فرحه بكلمة جريئة مُحِقَّة يُجابَه بها ، أو يُجابَه بها أحد من وُلاته تفوق كل فرح آخر على وجه الأرض . .

ذات يوم يصعد المنبر ، ليحدث المسلمين فى أمر جليل ، فيبدأ خطبته بعد حمد الله . بقوله « اسمعوا يرحمكم الله » .

ولكن أحد المسلمين ينهض قائماً ؛ فيقول :

والله لا نسمع . . ، والله لا نسمع . . ! !

فيسأله « عمر » فى لهفة . ولم يا سلمان . . ؟ !

فيجيب « سلمان » . ميَّزت نفسك علينا فى الدنيا . أعطيت كلاً منا بردة واحدة ، وأخذت أنتَ بُردتين . . ! !

فيُجيل الخليفة بصره فى صفوف الناس ثم يقول :

— أين عبد الله بن عمر . . ؟

فينهض ابنه عبد الله : ها أنذا يا أمير المؤمنين . .

فيسأله عمر على الملأ : مَن صاحب البردة الثانية . . ؟

فيجيب عبد الله : أنا يا أمير المؤمنين . .

ويخاطب « عمر » سلمان والناس معه فيقول :

— إننى كما تعلمون رجلٌ طُوال ، ولقد جاءت بردتى قصيرة ، فأعطانى عبد الله بردته ، فأطَلت بها بردتى . .

فيقول سلمان وفى عينيه دموع الغبطة والثقة :

— الحمد لله . . والآن قل نسمع ونُطع يا أمير المؤمنين ! ! . .

أيبلغ الناس من حرية المعارضة أن يُحددوا للحاكم عدد أثوابه وملابسه ، وبهذه اللهجة الصارمة . . ؟ !

ألاَ مَن كان يعرف لهذا نظيراً فى التاريخ كله ، فليأتنا به . . ! !

* * *

فى يوم آخر ، وهو جالس مع إخوانه ، يخترم الصفوفَ رجل ثائر ، ملء قبضته شعر محلوق ، ولا يكاد يبلغ « عمر » حتى يقذف بالشعر فى صدره فى مرارة واحتجاج . .

ويموج الناس بالغضب ، ويهمّ به بعضهم ، فيومئ إليهم « عمر » ثم يجمع الشعر بيده . ويشير للرجل ، فيجلس ، وينتظر عليه « عمر » حتى يهدأ روعه ، ثم يقول له :

– والآن ، ما أمرُك . . ؟ ؟

فيجيب الرجل وقد عادت إليه ثورته :

– أما والله ، لولا النارُ يا عمر . . . ! !

فيقول عمر : صدقتَ والله . . لولا النار . . ! ! ما أمرك يا أخا العرب . ؟

ويقص الرجل شكَاته ، وفحواها أن « أبا موسى الأشعرى » أنزل به عقوبة لا يستحقها . . فجلده وحلق شعر رأسه بالموسى ، فجمع الرجل شعر رأسه وجاء به إلى « عمر » . .

فينظر عمر إلى وجوه أصحابه ويقول :

– لَأنْ يكون الناس كلهم فى قوة هذا ، أحبُّ إلى من جميع ما أفاء الله علينا . . ! !

ثم يكتب لأبى موسى يأمره أن يُمكّن الرجل من القصاص منه – جَلْداً بجلْد وحَلْقاً بِحَلْق . . ! ! !

هذا حاكم يهتز فرحاً لكل احتجاج قوى ، أو معارضة شجاعة – وإن رجلا واحداً يطالب بحقه فى غير حذر ، ويقول كلمته فى غير جبن لأحب إليه كما قال ، من كل ما فُتح له من الأرض ، ومن كل ما ورث عن كسرى وقيصر . . ! !

كان « عمر » واثقاً بنفسه . وباستقامة نهجه ، ومن ثم لم يكن يُحاذر النقد أو يخاف المعارضة ، بل كان يبحث عنهما ، ويُثيب عليهما ، ويثيرهما فى قلوب أمته وعقول شعبه . ويتخذ منهما مَشعلا يستضئ به وحُجَّة يستكمل بها صواب أمره . .

يخطب الناس يوماً فيقول :

— « لا تزيدوا مُهور النساء على أربعين أوقية ، فمن زاد ألقيت الزيادة فى بيت المال » . .

فتنهض من صفوف النساء سيدة تقول : ما ذاك لك . .

فيسألها : ولم . . ؟

فتجيبه : لأن الله تعالى يقول : « . . وآتيْتُم إحْداهنَّ قِنطاراً فلا تأْخذوا مِنْه شيئاً ، أتأْخذَونه بُهتاناً وإثماً مُبيناً » .

فيتهلل وجه « عمر » . ويبتسم ويقول عبارته المأثورة : « أصابت امرأة ، وأخطأ عمر » . .

وحتى حين كانت تأتيه المعارضة غَضبَى لأفحَـة . لم يكن يضجر منها أو يضيق بها .

بعد أن عزل « خالد بن الوليد » جمع الناس فى المدينة وقال لهم :

— « إنى أعتذر إليكم من عزل خالد ، فإنّى أمرته أن يحبس هذا المال على ضَعَفَةِ المهاجرين ، فأعطى ذوى البأس ، وذوى الشرف ، وذوى اللسان » . . .

فنهض أبو عمرو بن حفص بن المغيرة وقال :

— « والله ما أعذرتَ يا عمر ، ولقد نزعتَ فتى ولاّه رسول الله ، وأغمدتَ سيفا سلّه رسول الله ، ووضعتَ أمراً رفعه رسول الله . وقطعت

رَحِماً ، وحسَدتَ بنى العم » . . ! !

قطيعة رحم . . وحَسد . . يُتهم بهما أمير المؤمنين هكذا فى غضب وعلى الملأ . . ؟ !

أجل ، وما زاد « عمر » على أن ابتسم ابتسامة صافية ، وقال مخاطباً أبا عمرو : « إنك قريبُ قَرابةٍ ، حديث السن ، تغضب فى ابن عمك » . . !

* * *

هذا ليس حاكماً عادلا وحسب . . بل هو معلم كبير ، وصاحب مهارة بالغة فى صقل الجوهر الإنسانى وبعث قواه .

فأى أثر باهر يتركه موقف كهذا فى أفئدة الناس . . ؟ ؟

وأية طمأنينة غامرة يملأ بها القلوبَ حاكم هذا سلوكه . . ؟ !

ولكن ، لم لا يفعل « عمر » هذا ، وأكثر منه ، وهو تلميذ رسول الله : وصاحب أبى بكر خليفته . . ؟ !

ولقد رأى بعينيه وسمع بأذنيه أعرابياًّ من أهل البادية يتهجم على رسول الله عليه السلام ويقول له وهو بين أصحابه :

— « أعطنى ، فليس المال مالَك ولا مالَ أبيك »

ويرى الرسول يبتسم ، ويقول للرجل :

— « صدقت » إنه مال الله . ! !

ويستفزّ المشهد رجلا ، هو « عمر » نفسه ، فَيهمّ بالأعرابى ليبطش به ، فيرده رسول الله فى رفق . وابتسامته تعلو شفتيه كتهلُّلِ الربيع ، ويقول له :

— « دعه يا عمر . إن لصاحب الحق مقالا » . . ! !

أجل ، على هذا النهج المستقيم يمضى عمر مُقدِّراً كل نقد نافع ،

موقِّراً كل معارضة أمينة . .

وإن لجميع الناس الحق فى أن يشيروا على أمير المؤمنين ، وفى أن يعارضوا ما لا يقنعهم من تصرفاته .

ولقد تركهم يفهمون تماماً أن الشورى ليست تَرفاً ، ولاَ مِلْءَ فراغ . . إنما هى نهوض الشعب بمسئولياته مع الحاكم يداً بيد ، ورأياً برأى ، ومشيئة بمشيئة . .

وكان إيمان الناس بأن أميرهم جاد فى معرفة آرائهم ، وتمحيص رأيه . .

وكانت التجارب الكثيرة التى أثبتت حفاوته بالمعارضة ، واحترامه للشورى . .

كان هذا وذاك على رأس الحوافز التى ألهمت الناس – جميع الناس – الشجاعة فى إبداء الرأى ، والمشاركة فى حمل تبعة المصير .

لقد كان عمر خبيراً بأولئك الذين يَرصُدون الريح ، ويستنبطون هوَى الحاكم ، فيسبقونه بالرأى الذى يساير هواه . . ! !

كان خبيراً بهؤلاء ، فلا يقيم لهم وزناً . .

وكان يقول لأحدهم إذا تقدم لتمثيل دوره : « يا عدو الله ، واللهِ ما أردتَ الله بهذا . . ! ! »

وكان هؤلاء قلة باهتة .

أما الأكثرون ، فقد كانوا من الطراز الرفيع الباهر الذى يقول كلمته واضحة ، صادحة ، صادقة ، نافعة ، يمليها عليهم إيمانهم بواجبهم وبحقهم معاً . . ويشجعهم عليها سلوك أمير المؤمنين تِلْقاء نُصحائه ومعارضيه . .

* * *

وعظيمٌ من عمر ، أنه كان يلتمس المشورة والرأى ، كَفردٍ عادى لا كحاكم وأمير للمؤمنين . .

فهو إذ يطلب الرأى فى أمر ، لا يبدى عن أى مظهر من مظاهر السلطة . . بل يُشعر الآخرين بأنهم يُسْدون إليه خيراً جزيلا ، وينقذونه من وطأة الحساب إذ يساعدونه بآرائهم على تبين الصواب والحق . . ! !

وبهذه الروح نفسها يتلقى – كما رأينا – كل معارضة له ، بل وتنديد به . .

كان يجتاز الطريق يوماً ، ومعه « الجارود العبدى » فإذا امرأة تناديه وتقول :

– رُويدك يا عمر ، حتى أكلمك كلمات قليلة . .

ويلتفت « عمر » وراءه . ثم يقف حتى تبلغه السيدة . فتقول له وهو مُصْغٍ مبتسم :

– يا عمر : عهدى بك ، وأنت تسمى « عُميراً » تصارع الفتيان فى سوق عكاظ ، فلمْ تذهب الأيام حتى سميت « عمر » . . . ثم لم تذهب الأيام حتى سميت « أمير المؤمنين » . . فاتق الله فى الرعية ، واعلم أن من خاف الموت ، خشى الفَوْت . . ! !

فقال لها « الجارود العبدى » : اجترأتِ على أمير المؤمنين .

فجذبه عمر من يده وهو يقول : دعها فإنك لا تعرفها ، هذه « خَوْلة بنت حكيم » التى سمع الله قولها من فوق سبع سماواته وهى تجادل الرسول فى زوجها وتشتكى إلى الله . فعمر والله حَرِىٌّ أن يسمع كلامها . . ! !

* * *

إن فطرة العربى ، وروح الإسلام ، أمدَّا المسلمين الأوائل لا شك بهذا الحظ العارم من الشجاعة فى مواجهة الحاكم .

ولكن لا ريب فى أن هذه الشجاعة الخارقة ما كانت ستبلغ مداها الشّامخ هذا ، لو لم يكن سلوك الحاكم تجاهها سلوكاً نبيلا جليلا يساعد على إربائها لا إطفائها – الأمر الذى كان يصنعه « عمر » . .

لقد نجت الشورى فى عهد هذا الرجل الكبير من كل ضائقة وأزمة .

ذلك أن أزْمة الشورى توجد عندما يوجد الحاكم الذى يحب السُّلطة ، أكثر مما يحب الحرية . .

و« عمر » لم يفعل نقيض ذلك فحسب ، بل إنه نظر إلى السلطان كما ينظر المضطر إلى لحم الميتة . . ! !

وعلى الرغم من أنه جرَّد السلطة حين مارسها من كل زَهوها ، ومن كل إغرائها ، ومن كل ضراوتها ، فقد ظل ينظر إليها نظرته تلك ، وظلت علاقته بها علاقة مَن حُمِل عليها ، لا مَن سَعى إليها . .

ولقد كان دائماً يعدُّ الشعب ويهيئه ليكون هو الحاكم الحقيقى ، وليكون الخليفة الحق له يوم يذهب عن هذه الدنيا .

كان كل همه أن يتركه شعباً قويًّا صلْباً ، ولقد فعل . . .

وضع فى خدمته كل دخل الدولة . وأقام من أجله الثغور ، والحصون ، وشاد له المدن والأمصار . .

ثم مع هذا ، بل قبل هذا ، وضع كلتا عينيه على القوة النفسية للشعب . تلك التى تتمثل فى شعوره الحقيقى بأنه سيّد . . وبأنه آمِنٌ كل الأمن . . وبأنه يصنع مصيره ، ولا يُفاجَأ به . . ! !

وهكذا أخضع « عمر » للشورى كل خُطة وكل قرار . . وأعطى الحق

كل توقير وكل إكبار . . ولم يجعل الشورى وقفاً على بطانة أو فريق من الناس . بل احترمها كحق مبرور للأمة كلها . ! !

ذلك أن أمير المؤمنين لم يكن رجلَ بِطانة . . بل كان رجلَ أمة ، ورجلَ عالَم ، ورجل تاريخ . . ! !

* * *

نحن أمام إنسان فيه كل أصالة نشأته ، وبيئته ، ودينه . .

رجل يعرف مكانه من الناس ، ويعرف مكان الناس منه ، ويعرف مكانه والناس معاً من تيَّار الحياة الإنسانية الهادر .

ثم هو بصير بحقائق عالَمه من غير أن يدرس هذه الحقائق فى جامعة أو فى كتاب . .

وأُولى هذه الحقائق كما يعلم ، وكما عبر هو فى أعذب وأمتع وأجمع قول : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » . . ؟

هذه أولى حقائق عالمنا الإنسانى ، كما يدرك « عمر » : « الحرية حق تعلنه لحظة الميلاد » . .

وهو كحاكم ، لا يخافها ، ولا يُجفل منها ، بل يحبها حب عاشق ويقدسها تقديس مؤمن . .

ومفهوم الحرية عنده فى منتهى اليسر . وأيضاً فى منتهى الشمول . فالحرية ، هى حرية الحق . . .

الحق فوق جميع القيود . .

وما دام الناس هم الذين يكتشفون الحق ، فيجب أن يكونوا أحراراً فى ممارسة كشفه . .

وما دام لا يوجد إنسان واحد يملك الحق وحده ، أو يعرفه وحده ؛ فلكل فرد إذن الحق فى أن يسلك طريقه إلى معرفة الحق . .

أى أن الناس أحرار فى أن يعلنوا آراءهم ، ويحدثوا بما فى أنفسهم فإن يك صواباً ربح المجموع هذا الصواب ، وإن يك خطأ تبيّن صاحب الخطأ خطَأه . .

ولكنْ من حق « عمر » علينا أن نقول : إن هذا الحق الذى يحترم اختلاف وجهات النظر فيه هو الحق الذى لم يأت فيه من الله ولا من رسوله بيان واضح وفاصل . .

وما أكثر نماذج الحق الذى ترك الله للناس أمر كشفها ، وما أكثر الحقائق التى تتطلب آراء الناس لِتَظهر وتَبين . . ! !

وعند « عمر » أن إبداء الرأى من حق كل فرد ، ذكر وأنثى ، كبير وصغير ، وليس من حق الصفوة . أىٍّ صَفْوَة . . .

ذلك لأنه ينظر حواليه ، فيرى امبراطوريات تنهدم ، وعروشاً تنهار ، وشعوباً ذليلة ، تصحو وتتحرر . .

ثم ينظر . . بيد مَن يتم هذا العمل الجليل . . ؟

إنه يتم بأيدى الرجال العاديين . . الأميين والفقراء والبسطاء الذين آمنوا « بمحمد » واتبعوا النور الذى أنزل معه . . هؤلاء إذن ، هم قوام الحياة الجديدة . . ! !

فإذا كنا نحترم سواعدهم التى تضرب وتبنى ؛ فلا بد أن نحترم كلمتهم التى تُقال . . وإذا كنا نتطلب تأييدهم وتعضيدهم ، فلا بد أن نتقبل مشورتهم ونقدهم . . ! !

وما داموا هم الذين يحملون العبء أولا وآخراً ، فليس من حق حاكمهم

أن ينفرد دونهم باتخاذ قراراته ورسم خُططه ، وبالتالى ليس من حقه أن يتجاهل حقهم فى أن يقولوا : لا . . ما دام يحتاج إليهم فى يوم يقولون فيه : لبيك . . ! ! !

يدور ذات يوم حوار بينه وبين واحد من الناس .

ويتمسك الآخر برأيه ، ويقول لأمير المؤمنين : اتق الله يا عمر . ! ويكررها مرات كثيرة . .

ويزجره أحد الأصحاب الجالسين قائلا : صه ، فقد أكثرت على أمير المؤمنين .

ولكن أمير المؤمنين يقول له : « دَعْه ؛ فلا خير فيكم إذا لم تقولوها . . ولا خير فينا إذا لم نَسمعها . . » !

أجل ، لا خير فى الناس إذا لم يقولوا ما يرونه حقًّا ، ولا خير فى الحاكم إذا لم يسمع منهم ويُصْغ إليهم . .

* * *

ولكن ليست المشكلة مشكلة قول وسمع . .

إنما هى أولا مشكلة الثقة والطمأنينة اللتين ترفعان من مستوى الشجاعة فى إبداء الرأى . . ومستوى العدالة فى تَقبُّله . . .

وهذه عظمة « عمر » فى هذا المقام ، وهى كعظمته فى كل مقام . . .

عظمته فى إدراكه أن الشجاعة هى سر الحرية وجوهرها . . وأن الناس إذا فقدوا شجاعتهم ، فقدوا بالتالى كل ما يؤهلهم للاستقامة والتقدم والتطور الصاعد السديد . .

وعندئذ فالويل لهم ، والويل للحاكم معهم . .

إن الاثنين معاً . الحاكم والشعب ، بتخليهما عن الشجاعة فى إبداء الرأى وتقبُّله . قد أزْمَعا الانسحاب من الحياة . . ! !

* * *

ألا هنيئاً لأمة يقودها هذا القوى الأمين « عمر » . . .

هذا الرجل الذى بَرِئَ من آفة الحكم وآفة الحكام فى كل زمان — ألا وهى الحرص على أن تكون كلمتهم العليا . .

بَرِئَ « عمر » من هذا ، وتفوّق عليه . .

وكانت الكلمة العليا عنده للحق أنَّى يكون .

ولقد يَقضى قضاء ، ويُبرم أمراً ، فيعارضه صاحبه ، ويقول للإمام العادل . والخليفة الأمين : ليحكم بينى وبينك آخرون . .

فلَا وَربك لا يألَمُ « عمر » ولا يتأبَّى ، بل يرحب فى غبطة ، لأنه سيجد عوْناً على الحق إن كان مُحقًّا ، وهُدًى إلى الصواب إن كان مخطئاً . . !

لقِى العباس يوماً وقال له :

— لقد سمعت رسول الله قبل موته يريد أن يزيد فى المسجد ، وإن دارك قريبة من المسجد فأعطنا إياها نزدها فيه . وأقطع لك أوسع منها . .

قال العباس : لا أفعل . .

قال عمر : إذن أغلبك عليها . .

فأجابه العباس : ليس ذلك لك ، فاجعل بينى وبينك من يقضى بالحق .

قال أمير المؤمنين : من تختار . . ؟ ؟

قال العباس : حذيفة بن اليما ن . .

وبدلا من أن يستدعى أمير المؤمنين إلى مجلسه « حذيفة » انتقل هو والعباس إليه .

أجل ، فحذيفة الآن يمثل سلطة أعلى من سلطة الخليفة نفسه . إنه سيقضى ويفصل بين الخليفة ، وواحد من المسلمين . . بين الدولة : وفرد من المواطنين . . شيء تشبهه – لو استقامت على الطريقة – مجالس الدولة فى عصرنا هذا . . .

وأمامَ حذيفة بن اليمان جلس « عمر » ، والعباس . وقصّا عليه الخلاف الذى بينهما .

فقال حذيفة : سمعت أن نبى الله « داود » عليه السلام أراد أن يزيد فى بيت المقدس فوجد بيتاً قريباً من المسجد ، وكان هذا البيت ليتيم ، فطلبه منه فأبى . فأراد « داود » أن يأخذه قهراً ، فأوحى الله إليه : « إنّ أنزهَ البيُوت عن الظُّلم لَهو بيتى » فعدل داود وتركه لصاحبه . .

فنظر العباس إلى « عمر » وقال : ألا تزال تريد أن تغلبنى على دِارى . ؟

قال عمر : لا . .

قال العباس : ومع هذا ، فقد أعطيتك الدار تزيدها فى مسجد رسول الله . . ! !

* * *

أغلب الظن ، أن « عمر » لو رأى انبهارنا اليوم بديمقراطيته وإنسانيته وعظمته . لَرمقنا بنظرة ملؤها الدهَش والعَجب . .

فهو لم يكن فى كل روائعه هذه ، يحسب أنه يأتى أموراً غير عادية ،

وهذا هو « جوهر » العظمة . .

عظمة رجل يدعو بالرحمة لمن يُهدِى إليه أخطاءه . .

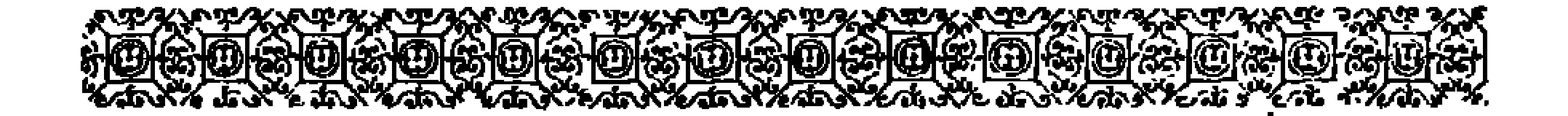
لمن يقول له : لا . . . يا عمر . . ! !

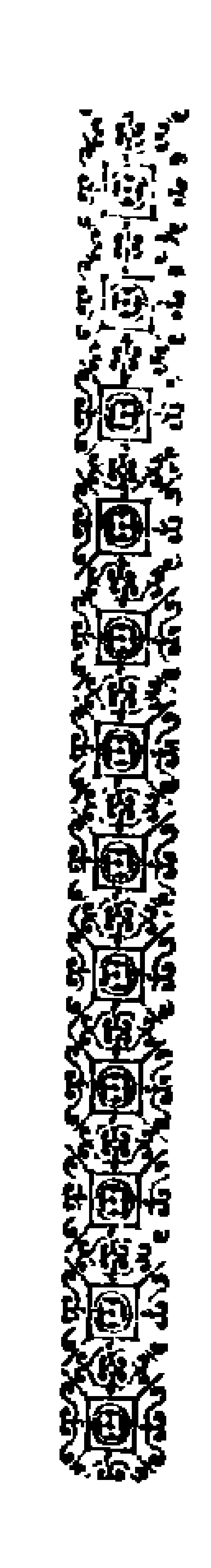
ألا حيًّا الله أمير المؤمنين .

وتحية طيبة للبشرية التى أنجبته ، وللدين الذى رَبّاه . . ! ! !

الفصل الخامس

لستُ بالخِبِّ، ولا الخِبُّ يخدعني





فى مستوى فطرته ، وإيمانه ، ومسئوليته ، كان ذكاؤه وكانت فطنته .

ولقد لخصت أم المؤمنين « عائشة » رضى الله عنها حِذقه الفائق فقالت :

« كان والله أَحْوَذِيًّا ، نسيج وحده ، قد أعدَّ للأمور أقْرانها » . .

ولقد أفاء الله عليه الكثير الغدَق من الفهم والحكمة « يُؤتِى الحكمة من يشاء ، ومَن يُؤتَ الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً » .

و « عمر » أهل لفضل الله وعطائه وخيره ، فليس فى حياته كلها شىء له . إنها كلها مُكرَّسة لله . منذورة لطاعته وخدمة خلقه .

وذكاؤه سناد للحق ، لا للباطل .

وهو ينبع من مسئوليته ، ويعمل وَفقها .

وهو ذكاء الفطرة السويّة ، والتجربة اليقظى ، ومن ثَم فهو لا يعرف المراوغة ، ولا المُماراة . . إنما يتحرّى الحق ، وينفُذ إلى اللُّباب المستسِرّ فى مثل لمح البصر أو هو أقرب . . ! !

وحظه من فقه الإسلام خاصّة ، حظ عظيم جدّ عظيم

يقول عبد الله بن مسعود :

« كان عمر أعلمنا بكتاب الله . وأفقهنا فى دين الله » .

وكان أصحابه يتحدثون بأنه ذهبَ وحده بتسعة أعشار العلم .

والحق أن توقّد ذكائه ، وخصوبة قريحته لا يَخفيان فى أى تصرف من تصرفاته ، أوكلمة من كلماته . .

وكما لا يزهو « عمر » بسلطانه ، فهو لا يزهو بعبقريته . . تلك العبقرية التى لو شاء أن يخوض بها معارك الذكاء لربحها جميعاً ، غير أنه لم يُعْطَ نعمة الذكاء كما يرى ، إلا ليبصر الحق فى ضياء هذا الذكاء ، وليتجنب به أحَابِيل المكر السيئ التى ينشرها دائماً أعداء الوضوح وخصوم الحق . .

كثيراً ما كان يقول رضى الله عنه :

« لستُ بالخِبِّ ، ولا الخِبُّ يخدعنى » . . !

وهى عبارة تصور طبيعة نبوغه وذكائه .

فهو ليس ذكاء عُدوانيًّا . . ولا ذكاء مُراوغة وخَتْل . .

ليس ذكاء هجوم . بل . . . ولا ذكاء مقاومة . .

إنما هو ذكاء تفوّق ، يتفجر من شخصية متفوقة ، ويعمل فى خدمة مبادئ متفوقة . .

هو إذن ليس ذكاء مَعارك ، بل ذكاء بُطولات . . .

وليس ذكاءً مدرسيًّا ، بل ذكاء خلاّقاً مُبدعاً . .

وهذا أيضاً من آيات هذا العقل الذى يؤمن بالنَّص ويُذعن للأثر . ثم هو مع هذا صوَّال جوَّال . يستشرف الغيُوب ويكاد أحياناً يسبق الوحى ،

مما جعل رسول الله يقول مشيداً بهذه الفطنة الخارقة :

« إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه » . .

* * *

يقول للرسول يوماً :

يا رسول الله . أليس هذا مقام إبراهيم أبينا . . ؟

يقول الرسول : نعم .

فيقول عمر : فلو اتخذتَ منه مُصَلّى .

فما هى إلا أيام حتى يتنزل الوحى بالآية الكريمة : « واتخذوا مِن مقام إبراهيم مُصلّى » .

ومثل هذه الواقعة كثير ، حيث كانت تنبثق من عقله المضىء ، وبصيرته الذكية فكرة ، أو أمنية ، فيتنزل بها الوحى بعد قليل .

من أجل هذا قال الرسول فيه :

« لو كان بعدى مُحَدَّثون ، لكان عمر » . .

ومن أجل هذا جعله الرسول مصدراً من مصادر التشريع حين قال لأصحابه :

« إنى لا أدرى ما مقامى فيكم ؛ فاقتدوا باللَّذَيْن من بعدى ، أبى بكر وعمر » . .

وذكاء « عمر » عميق واسع ، ونظرته الحصيفة تُجَلِّى كل غامض ، وتنفذ إلى كل غَوْر بعيد . .

ورأيُه فى شىء يسير ، كرأيه فى أمر خطير - كلماتٌ وجيزة ، وأحكام مستوعِبة . .

وله فقه عظيم بطبائع الناس . . . كفقهه العظيم بأحداث الدنيا وأسرار الحياة . . ! ! !

* * *

كان يقول : « الناس بزمانهم ؛ أشبهُ منهم بآبائهم »

ويقول : « ما من أحد عنده نعمة ، إلا وجدت لها حاسداً . . ولو كان المرء أقومَ من القدَح . لوجدتَ له غامزاً » . . ! !

أحكام وجيزة ، لكنها عميمة ، تتركز فيها حكمة « عمر » وعبقريته ، وخبرته العميقة بنفس الإنسان .

وإنه لَيضع الناس فى ميزان ذكى قويم فيقول :

« أحبكم إلينا قبل أن نراكم أحسنكم سيرة ، فإذا تكلمتم فأبينكم منطقاً ، فإذا اختبرناكم فأحسنكم فعلا » . .

والمظاهر العابرة ، لا تكفى عنده لتكوين أحكام عن الآخرين .

يسمع واحداً يُطرى آخر ويمتدحه قائلا ، إنه رجلٌ صِدق

فيسأله عمر : هل سافرت معه يوماً . . ؟

يقول الرجل : لا

— هل كانت بينكما خصومة يوماً . . ؟

— لا . .

— هل ائتمنته يوماً على شىء . . ؟

— لا . .

فيقول عمر : « إذن لا علم لك به . لعلك رأيته يرفع رأسه فى المسجد ويخفضه » . . ! ! !

هذا إمام من أئمة التقى والورع والهدى ، ثم لا يرى رفع الرأس وخفضه فى المسجد كافياً للثقة بمن يفعل هذا ، ، لا تهويناً لشأن العبادة ، ولكن إحاطةً بأسرار النفس الإنسانية وحسنَ فهم لتياراتها الخافية . .

إن ذكاء « عمر » لا يأتى الأمور من بعض زواياها ، إنما يكشفها جميعاً ، ويستوعبها حتى آخر نماذجها واحتمالاتها . .

فهو فى معرفته بالناس . لا يكتفى بتمحيص جانب العبادة فيهم ، على الرغم من علو مكانة العبادة والعابدين عند « عمر » ، إنما يُطل على الشخصية كلها ، لأن العبادة أيضاً فى مفهومها السديد عند « عمر » ، تعنى استواء الشخصية الإنسانية واكتمالها . .

من أجل هذا ، كان يشكو كثيراً من سذاجة التقىِّ ، ومقدرة غير التقى . .

وما كان يرى السذاجة والغفلة من خصائص العبادة والتقوى . بل التقوى عنده قوة وطهر . وسَعة حيلة ، وتفوُّق . .

والحياة لديه ليست غفلة صالحة . بل هى تجربة ناجحة ، ومِراس أمين .

تحدث الناس عنده يوماً عن رجل وذكروه بخير فقالوا : إنه لا يعرف الشر أبداً . .

فقال « عمر » ذاك أجدر أن يقع فيه . .

ليس معنى هذا طبعاً أن ارتكاب الشر ضرورى لمعرفته ، إنما معناه أن يكون الإنسان بصيراً بالشرور حتى لا تغزوه متنكرة فى ثياب الخير . .

ويدرك « عمر » كذلك بفطنته المتألقة أن الفضيلة ليست انسحاباً من الحياة حَذرَ الفتنة ، بل هى مجابهة الحياة ومُغالبة الفتنة .

وفى هذا يُسأل : أيهما أزكى وأفضل – رجل لا يَأثم لأن نفسه لا تشتهى

الإثم ، أم رجل تشتهى نفسه الإثم ولا يأثم . .

فيجيب « عمر » الحصيف الألمعى : « الذين يشتهون المعصية ، ولا يعملون بها ، أولئك الذين امتحَن الله قلوبهم للتقوى ، لهم مغفرة ؟ وأجرٌ عظيم » . . . ! !

* * *

وتتراحب أبْعاد هذا الذكاء وهذا الفقه ، حين يواجهان مشاكل لحياة والناس .

تُعرض عليه قضية يُفتِى فيها . : وبعد حين ، تعرض عليه قضية مماثلة لتلك ، فيفتى فيها فتوى مغايرة . . فإذا سئل عن سر هذا التفاوت قال : ذاك على ماقضينا ، وهذا على ما نقضى . .

إن ظروف القضيتين مختلفة ، وإن تماثَلت الوقائع .

وعمر الفقيه العبقرى ، لا يحمل داخل عقله فتاوى كالقوالب الجامدة ، إنما يحمل فهماً يتحرك فى كل الجهات . ويدرك ما لِتَباين الظروف وتغاير الأسباب من تأثير فى الحادثة ، وتأثير فى الحكم . .

ولا شيء يفوق ذكاء « عمر » ، سوى جرأة هذا الذكاء . . ! !

فنراه وهو الذى كان يتحرَّى التزام النَّص ، ومتابعة الرسول عليه السلام . يعلن إنهاء حكم شرعى ، مات الرسول وهو نافذ قائم ، ومات أبو بكر وهو نافذ قائم ، ولا يزال منطوق هذا الحكم آية تُتلى فى كتاب الله . . . ! !

هذا الحكم ، هو تخصيص جزء من ضريبة الزكاة للمؤلَّفة قلوبهم

والمؤلَّفة قلوبهم جماعة دخلوا الإسلام باقتناع ضعيف ، أو بغير اقتناع . ففرض القران لهم فى بيت المال حظًّا يأخذونه من الزكاة تألُّفاً لهم . حتى

لا ينصرفوا عن الدين قبل أن يذوقوا حلاوة الإيمان فيقبلوا عليه راغبين موقنين . .

قلّب « عمر » وجوه الرأى فى هذا الشأن ثم قال :

« لقد كان رسول الله يعطيهم ، والإسلام يومئذ ضعيف . . أمّا اليوم فقد أعزَّ الله دينه وأعلى كلمته ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، ولن يتسع هذا الدين إلا لمن يدخله راغباً مؤمناً » .

إن هذا الموقف وحده يرتفع إلى أعلى مستويات الذكاء الإنسانى ليس لما يتضمن من حسن التعليل ، بل لما يتضمن من شجاعة التفكير . فكثيرون يستطيعون أن يدركوا ما أدرك « عمر » من حكمة التشريع فى مثل هذه الواقعة ، لكن « عمر » وحده هو الذى يستطيع ذكاؤه الحاسم أن يطوِّر هذا التشريع ؛ لا سيما إذا كان مقرراً بآية قرآنية لم تُنسخ . وعمل للرسول لم يُنقض . .

الحق أن أعمق رُؤى البصيرة ، وأعمق أسرار الشريعة ، قد التقتْ لقاء سعيداً فى وَعْى هذا الرجل الراشد الأمين . . !

ولقد أشاد الرسول بهذه النعمة التى أفاءها الله على « عمر » . فيروِى البخارى ومسلم رضى الله عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

– « بينما أنا نائم ، إذ رأيت قدحا أَتيتُ به فيه لبَن ، فشربت منه حتى إنى لأرى الرِّىَّ يجرى فى أظفارى ، ثم أعطيتُ فضلى عمر بن الخطاب . . قال أصحاب الرسول ، فماذا أوَّلْته يا رسول الله ؟ قال : العلم » .

* * *

يُجاء إليه بمسلم ارتكب ما يوجب الحدّ ، ويشهد ثلاثةٌ شهادة تدينه ، ولم يبق إلا شهادة الرابع ، ثم يصير الحد عقاباً محتوما . .

ويُرسل « عمر » يستدعى الشاهد . . ولا يكاد يراه مقبلا حتى تأخذه رهبة . . وحين تقترب خطاه ، ينظر إليه أمير المؤمنين ويقول : « أرى رجلا أرجو ألاَّ يفضح الله به واحداً من المسلمين » . .

ويقدم الشاهد ، ويقول . لم أر شيئاً يوجب الحد . .

ويتنفس « عمر » الصّعَداء . . ! !

ويأتيه رجل يسعى ذات يوم ظانًّا أنه يحمل إليه بشرى . فيقول يا أمير المؤمنين ، رأيت فلاناً وفلانة يتعانقان وراء النخيل ، فيمسك « عمر » بتلابيبه ، ويعلوه بمخفقته ، ويقول له بعد أن يُوسعه ضرباً : « هلاَّ سترت عليه ، ورجوتَ له التوبة ؛ فإن رسول الله قال : من ستر على أخيه ستره الله فى الدنيا والآخرة » ! !

هذا رجل معه من الورع ما يستهجن به الخطأ الأخلاقى ، ولكن معه من الفطنة ما يُقدّر به ظروف هذا الخطأ ، ومعه من الفقه ما يؤدى به حق الورع وحق الفطنة معاً . . ! ! !

وإنه ليوصى الناس بهذا الفقه العظيم فيقول :

- « هكذا فاصنعوا . . إذا رأيتم أخاً لكم زلَّ زلَّة فسدِّدوه ووفِّقوه ، وادعو الله أن يتوب عليه ، ولا تكونوا عوناً عليه للشيطان » . .

إن أمير المؤمنين شديد الوطأة ، شديد البأس ، ولكن الفهم السديد يضيءُ كل مواقفه ، وهو يقضى بذكائه لا بعواطفه . . فصحيح أنه ينفر من الإثم ، ولكنه يُمحِّص ظروف اجتراحه تمحيص خبير ، ويضع القاعدة الذهبية التى تقول :

« لأنْ أعطل الحدود فى الشُّبهات ، خير من أن أقيمَها فى الشبهات » . . !

يأتيه يوماً رجل يستفتيه قائلا :

– إن ابنتى كانت قد أصابت حدًّا من حدود الله ، وأخذت الشفرة لتذبح نفسها ، فأدركناها وقد قطعت بعض أوداجها فداويناها حتى برئت ، ثم تابت بعدُ توبة حسنة . وهى اليوم تُخطب إلى قوم ، أفأخبرهم بالذى كان . . ؟

فيجيبه عمر ذو الورع الذكى ، والذكاء الورع . .

– «أتعمَد إلى ما ستره الله فتبديه ؟ والله لئن أخبرت بها أحداً من الناس لأجعلنك نكالا لأهل الأمصار ، اذهب وأنكحْها نكاح العفيفة المسلمة » . . . ! !

* * *

وأمير المؤمنين لا يكوِّن أحكاماً جزئية مُبتَسَرة . بل تجىء أحكامه دائماً شاملة مستوعبة . ولا يصرف بصيرته عن الواقع ، بل يركزها عليه ، ويحيط به ، ويجعله من مصادر تفكيره الرشيد . .

* فى إحدى الليالى ، وقد خرج عاساً فى المدينة ، ينفض الليل عن الكروب المخبوءة ، سمع سيدة تشكو بَثَّها وحُزنها وتقول :

تطاوَلَ هذا الليل ، وازورَّ جانبه   وليس إلى جنبى حليلٌ أُلاعِبه
فوالله لولا اللهُ لا رب غـــيره   لزلزل من هذا السرير جوانبه
مخافة ربى ، والحيـــاء يصدّنى   وأُكرم بَعلى أن تُنال ركائبــه

ثم قالت : أهكذا يهون على « عمر » وحشتنا ، وغيبة رجلنا عنا . . ؟

ويتبين « عمر » أن زوجها مجنّد فى أحد جيوشه . .

وعند الصباح يذهب إلى ابنته حفصة ويسألها :

– يا حفصة . . كم تصبر المرأة عن زوجها . . ؟ !

فتجيبه : تصبر شهرا ، وشهرين ، وثلاثة ، وينفد مع الشهر الرابع صبرها .

فيسنّ من فوره قانوناً ، بألا يغيب فى الجهاد جندى متزوج أكثر من أربعة أشهر . ويرسل إلى زوج السيدة يستدعيه من فوره . . ! !

* ويسمع شيخاً كبيراً يبكى فى شعر جَزْل ولَده الوحيد الذى طال غيابه عنه . . ويسأل « عمر » فيعلم أنه هو الآخر فى أحد جيوش المسلمين ، فيستدعيه فوراً ثم يسن قانوناً ألا يخرج إلى الجهاد من له أبوان كبيران إلا بعد إذنهما . . ! !

ذكاء يعمل على الطبيعة ، ويستمد من واقع الناس والحياة مادة تفكيره . .

* ولقد درج العرف والقانون على اعتبار الاعتراف سيد الأدلة .

وهذا حق ، ولكن أمير المؤمنين يقرر بفطنته أنه ليس كذلك دائماً . ولا بد لكى يؤخذ الاعتراف كدليل ، ألاّ يُعْزلَ عن الظروف التى تكتنفه وتحيط به ، فلربما يجىء نتيجة خوف أو إكراه ، وعند ئذ يفقد قيمته

يقول عمر :

— « ليس الرجل بمأمون على نفسه إن أَجَعْتَه أو أخَفْته ، أو حَبسْته أن يُقِر على نفسه » . . ! !

* وهو يأمر قواد جيوشه ألا يُنزلوا بجندى عقاباً حتى « يَطلُعوا من الدَّرْب قافلين » . . ! !

إذا ارتكب جندى خطأ ما ، فَلتحقق الواقعة ، ولتحدد المسئولية ، ولكنّ توقيع الجزاء والعقوبة ، يظل مُرجأً حتى يُغادر الجندى بلاد الأعداء ، ويعود إلى وطنه . .

ويعلل أمير المؤمنين قراره هذا ، بالخوف من أن يلحق الجندى بالأعداء ويأوى إلى صفوفهم إذا أنزل به العقاب هناك . . ! !

إن ذكاءه التشريعي يتجلى فى هذه الوقائع اليسيرة التى ذكرناها تجلياً يكشف عن روح الفهم النافذ والاستعداد العظيم عند ذلك الرجل الملهم الرشيد .

* وإنه ليجاء إليه يوماً بغلمان صغار السن سرقوا ناقة رجل من مُزَينة . . ؟ فلا يكاد يراهم صفر الوجوه ، ضامرى الأجسام حتى يسأل : مَن سيِّد هؤلاء . . ؟

قالوا : حاطب بن أبى بلتعة . .

قال : إلىَّ به . .

فلما جاء حاطب ، سأله : أنت سيد هؤلاء . .

قال : نعم يا أمير المؤمنين .

قال عمر : لقد كدت أنزل بهم العقاب ، لولا ما أعلمه من أنكم تدئبونهم ، وتجيعونهم — لقد جاعوا فسرقوا ، ولن ينزل العقاب إلا بك . . ! !

ثم سأل صاحب الناقة :

— يا مُزَنى ، كم تساوى ناقتك . . ؟ ؟

قال : أربعمائة . .

قال عمر لحاطب : اذهب فأعطه ثمانمائة . .

ثم قال للغلمان : اذهبوا ، ولا تعودوا لمثلها . . ! !

* * *

وحين نتبع أفكار « عمر » فى كلماته التى يصوغها فى أحسن تقويم ،

نرى الجزالة ، والوضوح ، والمعاني الكبيرة ، والأهداف النبيلة . تلتقى لقاء سعيداً فى كل كلمة تنفرج عنها شفتاه . .

حين ولى الخلافة وقف يقول لقومه :

– « لن يغير الذى وَليتُ من خلافتكم شيئاً من خُلقى ، إنما العظمة لله وحده ، وليس للعباد منها شيء » : . ! ! !

ويحدثهم عن المال فيقول :

– « ألا إنى ما وجدت صلاح هذا المال إلا بثلاث : أن يؤخَذ من حق ، ويعطى فى حق ، ويُمنع من باطل . . . ألا وإنما أنا فى مالكم هذا كوالى اليتيم : إن استغنيتُ استعففت . . وإن افتقرتُ أكلت بالمعروف » .

ويقول فى كلمات وِضاء عِذاب :

« من أراد أن يسأل عن القرآن ، فليأت أُبَيَّ بن كعب . . ومن أراد أن يسأل عن الفرائض . فليأت زيد بن ثابت . . ومن أراد أن يسأل عن الفقه ، فليأت معاذ بن جبل . . ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتنى ؟ فإن الله جعلنى له خازناً وقاسماً . .

« إنى بادئ بأزواج رسول الله فمعطيهن . ثم المهاجرين الأولين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ، ثم الأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم ، ثم من أسرع إلى الهجرة أسرع إليه العطاء ، ومن أبطأ عن الهجرة أبطأ عنه العطاء ، فلا يلوَمن رجل إلا مُناخَ راحلته » . ! !

ويقول فى توزيع الثروة :

– « إنى حريص على ألا أدَع حاجة إلا سَددتها ما اتسع بعضنا لبعض ، فإذا عجزنا تآسينا فى عيشنا حتى نستوى فى الكفاف » . . . ! !

* * *

وحين نستعرض كتبه لقواده وولاتِه نرى كيف كان ذكاؤه يبلغ غاية الرُّشد فى كل شأن من الشئون . .

يكتب لأبى موسى الأشعرى موضحاً له منهج القضاء الذى ينبغى أن ينتهجه فيقول :

« من عبد الله أمير المؤمنين ، إلى عبد الله بن قيس . . سلام عليك . .

« أما بعد : فإن القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة ، فافهم إذا أدْلِى إليك ، وأنفذ إذا تبيَّن لك ؛ فإنه لا ينفع حق لانفاذ له . .

« آسِ بين الناس فى مجلسك ووجهك ؛ حتى لا يطمع شريف فى حَيْفِك ، ولا ييأس ضعيف من عَدلك . .

« البينة على من ادَّعى ، واليمين على من أنكر . .

« والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحلَّ حراماً أو حرَّم حلالا . .

« ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس ، فراجعتَ فيه نفسك وهُديت لرشدك أن ترجع إلى الحق : فإن الحق قديم لا يبطله شىء . ومراجعة الحق خير لك من التمادى فى الباطل . .

« الفهمَ ، الفهمَ فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا فى سنة ، واعرف الأشباه والأمثال ، ثم قِس الأمور عند ذلك ، واعمَد إلى أحبها إلى الله ، وأشبهها بالحق فيما ترى . . . واجعل لمن ادَّعى حقًّا غائباً أو بينة ، أمداً ينتهى إليه ، فإن أحضر بينته أخذت له بحقه وإلا استحللت عليه القضاء ؛ فإن ذلك أنفَى للشك . وأجْلَى للعمى : وأبلغَ فى العذر . .

« والمسلمون عدول فى الشهادة بعضهم على بعض ، إلا مجلوداً فى حدّ ، أو مجرَّباً عليه شهادة زور ، أو ظَنيناً فى ولاء أو قرابة ؛ فإن الله قد تولَّى منكم السرائر ، ودَرأ عنكم الشبهات . .

« وإياك والقلق ، والضجر ، والتأذِّى بالناس والتنكر للخصوم فى مواطن الحق التى يوجب الله بها الأجر ، ويُحسن الذُّخر فإنه من يُخلص نيته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى ، يَكْفِهِ الله ما بينه وبين الناس ، ومن تزيّن للناس فيما يعلم الله خلافه منه ، شانَه الله وهَتك ستره وأبدى فعله ، فما ظنك بثواب عند الله فى عاجل رزقه ، وخزائن رحمته ؟ والسلام » . . ! ! !

* * *

ويدخل عليه وفد من المجاهدين كانوا يفتحون تكريت وجلولاء ، فيرى جسومهم ضامرة ووجوههم شاحبة ، فيسألهم عن سبب ضعفهم فيجيبونه بأنها وخُومة البلاد ورطوبتها . .

فيكتب لسعد يأمره أن يحسن اختيار مكان يلائم الناس ، ويرسم له الطريق فيقول :

« ابعث سلمان رائداً ، وحذيفة ؛ فليرتادا منزلا ليس بينى وبينكم فيه بحر ولا جِسر ، وادع أبا الهياج بن مالك ، وأمره أن يجعلها مَناهج — يعنى شوارع — عرض كل منهما أربعون ذراعاً . . وأُخرى عرض كل منها ثلاثون ذراعاً . . وأخرى عرض كل منها عِشرون ذراعاً ، لا تضيق عن ذلك شيئاً . وأمره أن يجعل فيها أَزِقَّة ، الزقاق سبعة أذرع ، لا يضيق عنها شيئاً » . . !

* * *

ويكتب لسعد أيضاً ببعض توجيهاته العسكرية فيقول :

« ترفَّق بالمسلمين فى مسيرهم ، ولا تجشمهم مسيراً يتعبهم ، ولا تقصر بهم عن منزل رفق ، حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص قوتهم . . وأقم

بمن معك فى كل جمعة يوماً وليلة حتى تكون لهم راحة يُجِمُّون فيها أنفسهم ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم . .

ثم يقول :

« وإذا وطئت أدنى أرض العدو فأذْكِ العيون بينك وبينهم ، حتى لا يخفى عليك أمرهم ، واختر لهذا من تطمئن إلى نصحه وصدقه ؛ فإن الكذوب لا ينفعك خبره وإن صَدق فى بعضه ، والغاشّ عين عليك وليس عيناً لك . .

« وإذا دَنَوت من أرض العدو ، فأكثر الطلائع ، وبثَّ السرايا . أما السرايا فتقطع أمدادهم ومرافقهم . وأما الطلائع ، فتبلو أخبارهم ، وانتق للطلائع أهل الرأى والبأس من أصحابك . وتخير لهم سوابق الخيل ؛ فإن لَقُوا عدواً كان أول ما تلقاهم القوة من رأيك ، واجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد والصبر على الجلاد ، ولا تخصَّ أحداً بهوى فيضيع من رأيك وأمرك أكثر مما تحابى به أهل خاصتك ، ولا تبعث طليعة ولا سَرِيّة فى وجه تتخوف فيه ضيعة ونكاية ، فإذا عاينت العدو ، فاضمُم إليك أقاصيك وطلائعك وسراياك » . . ! ! !

* * *

ويكتب إليه أيضاً :

— « بلغنى أنه فشا لك ولأهل بيتك هيئة فى لباسك ومطعمك ومركبك ليس للمسلمين مثلها ، فإياك يا عبد الله أن تكون بمنزلة البهيمة التى مرت بواد خصيب فلم يكن لها هم إلا السِّمَن ، وإنما حَتْفُها فى السمن . . ! واعلم أن للعامل مرداً إلى الله ، فإذا زاغ زاغت رعيته ، وإن أشقى الناس

من شقيت به رعيته » . . . ! !

في هذه الرسائل أدلى « عمر » برأيه في مشاكل شتى ، في القضاء ، وفي العمارة ؛ وفي الجهاد ، وفي أمانة الحكم . .

وفيها ، وبين سطورها تتألق بديهته ، ونبوغه . .

* * *

وحتى حين كان يعبر عن أفكاره في تبسُّط ودعابة ، كانت الحكمة الذكية تملؤ الكلمات والحروف . .

يمر يوماً بدار جديدة في أطراف المدينة ، فيسأل : دارُ مَن هذه ؟

فيقولون : دار فلان . وفلان هذا واحد من ولاة عمر . .

فيقول : أبت الدراهم إلا أن تخرج أعناقها . . ! !

ويبصر يوماً نائحة تستجيش أحزان الناس وتمسح دموعها الكواذب فيعلوها بمخفقته . ويطردها ويقول : « إنها لا تبكى بشجونكم ، إنما تبكى بدراهمكم . . ! ! »

ويسأل أحد أولاد « هرم بن سنان » . الذى خلده بشعره ، « زهير ابن أبى سلمى » ، فيقول له أنشدنى بعض مَدح زُهيرٍ أباك . فينشده . .

فيقول عمر : إنْ كان لَيحسن فيكم القول . .

فيجيبه الرجل : ونحن والله . إنْ كُنَّا لَنحسن له العطاء . . .

فيقول عمر : قد ذهب ما أعطيتموه . . وبقى ما أعطاكم . . ! !

ذكاء ثاقب — يعبر عن نفسه بكلمات ثاقبة . . ! ! !

* * *

وبعد ، فالذكاء البشرى يقترن غالباً بالطموح الشديد ، والسعى الدائب وراء المزيد من أمجاد الدنيا والعلوِّ فيها . .

وهنا نلتقى بأبهى خصائص ذكاء ابن الخطاب . .

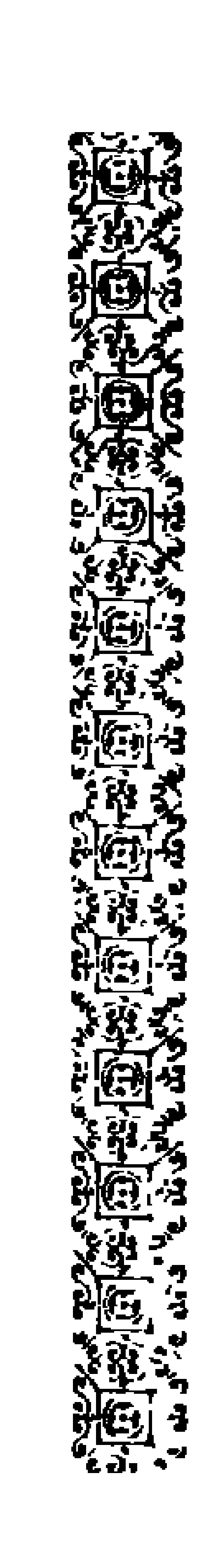
لقد كان ذكاء رُهبانيًّا ، لا يعمل فى خدمة صاحبه ، وإنما يعمل لله ، ومع الله ، فى سبيل الحق والخير والرحمة . . ! !

أجل ، كان ذكاء رجل أوَّاب . . مِن الله مأتاه . . وإلى الله مردّه . . وفى سبيل الله نشاطه ، وتَوقُّده ، ورُؤاه . . . ! !

الفصل السادس

بَشِّر صاحبكَ بغلامٍ





إذا اجتمعت هذه الفطرة السوية القوية ، وهذا الإيمان الوثيق بالله ، وهذه الأمانة الكاملة فى تحمل مسئوليات الوجود والحياة ، مع ذكاء ثاقب رَحْب ، فماذا يبقى من المكرُمَات والعظائم ، حتى يكون الكمال الإنسانى قد تجسّد بشراً ، ونهض على ساقَيْن . . ؟ ؟ ! !

هذا العدل ، وهذا الورع ، وهذا التفانى فى الواجب ، وهذه الاستقامة على صراط الحق ، والفِطنة التى لا يخدعها خِبٌ . .

تلك الخصائص المثلى لم يأخذ « عمر » منها حظًّا مجرد حظ ، بل بلغ نهاياتها ، وتفوق على مستوياتها القياسية جميعاً . .

أجل ، إن الكمال الإنسانى حين أراد أن يحقق وجوده المادى المحسوس ، تجسد فى نماذج نادرة وباهرة من البَشَر . وإن أحد هذه النماذج العليا ، لهو « عمر بن الخطاب » . . .

رجل كما رأينا ، عظيم . تتمنى العظَمة نفسُها أن تكون إحدى صفاته وسِماته . . ! !

على أن الصورة التى نتملأها له عَبْر هذه الصفحات لم تَستكمل بعد ملامحها ، فلا يزال هناك مَلْمح باهر مشرق أخاذ . .

صحيح أنه ماثل فى كل الملامح السالفة ، ولكنه بالنسبة إلينا ، نحن الذين نقسم الموضوع لنحسن فهمه ولنطيق استشراف هذه العظمة السامقة رويداً . لا يزال أمامنا هذا الملمح المطِلُّ ، يجذبنا ويدعونا . .

فالرجل الذى ورَّثه الله ملك كسرى وقيصر ، والرجل الذى كان أصحابه يرقبون ابتساماته ترقُّب الأهِلَّة من طول كَظمهِ شَفتيه خوفاً من الله ، ووقاراً له ، وفَرقاً من مسئولياته أن يَزِلّ فيها ، أوينُوء بها . .

الرجل الذى خُلق ليقود عالماً ، والذى رُزق طبيعة تقتلها الراحة ، ويُغريها العمل بالعمل . .

هذا الرجل الشاهق ، الهادر ، الجياش ، كيف كان نهج حياته تحت وطأة مسئولياته ، وإخباته ، وجيشان فطرته وطاقاته . . . ؟

هل عقّدته خصائصه هذه ، أم زادته وضوحاً . . ؟

هل اضطرته إلى الانطواء والتزمُّت ، أم مكّنته من المجاوزة ومنَحته التفتّح . . ؟ ؟

هناك قدر من التحفظ ، والصَّلَف ، تحمى به الزعامة المنتصرة نفسها ، وتصون به هيبتها ، فهل أخذ « عمر » حظه المألوف من هذا ، أم كان عنده بديل آخر دعَم زعامته ، وإمامته ، وهيبته . ؟ ؟

أجل ، كان هناك بديل يليق « بعمر » ، ولا يقدر عليه إلا واحد من طراز « عمر » . .

كان هناك البساطة . . ! !

ولكننا نظلم البساطة عند « عمر » ، إذا قلنا إنها كانت بديلا لشىء آخر .

فليس فى أخلاق « عمر » ولا فى خصائصه ما هو بديل . . إنما هى جميعا ذواتُ أصالةٍ مطلقة . و« عمر » نفسه ، هو وطنها وجوهرها . . .

أجل ، إن الشجاعة ، وإن العدل ، وإن الورع ، والاستقامة ، كلها أخلاق إنسانية يحمل أمانتها بنو الإنسان ، وتوجد بنسب متفاوتة مع الناس جميعاً – ولكن شجاعة « عمر » . وعدله ، وورعه ، واستقامته ، شيء نابع من « عمر » ، ومختص به . . وما كان سيوجد قط ، لو لم يوجد « عمر » . . ! !

لقد أدت خصائص « عمر » بمعونته دورها الفريد الفذَّ الذى جعلها متميزة كأنها من جوهر آخر فريد . هو « عمر » نفسه . .

وهذه عظمة الرجل . . إنه لم يأخذ من الفضيلة سيماها وطابعَها ، بل هو الذى منح الفضيله طابعه وسِيماه . . ! !

من أجل هذا ازدهرت الفضائل فى نفسه وسلوكه ، ازدهار شخصيته . .

واكتملت لديه الفضائل جميعاً واتحدت فى كل واحد ، هو « عمر » . .

وإذا كنا نُجزِّئها ونقول ، عدل « عمر » ، ورع « عمر » ، أمانة « عمر » ، فطنة « عمر » ، « قوة عمر » . . فإنما نفعل هذا لنعلِّم أنفسنا . .

أجل : إننا نُقسِّم طريقنا لنقدر على استيعابه ، ونقسم المادة التى بين أيدينا لنتمكن من تحصيلها . .

أما فضائل أمير المؤمنين ، فلا تتجزأ فى مجال العمل . كما لا تتجزأ فى ميزان التقييم . . ذلك لأنها ليست أوسمة منوطة بصاحبها . . بل هى صاحبها نفسه ، وهى الرجل الذى تنبع منه وتنتمى إليـــه . . هى ، « عمر » . . ! !

* * *

ورجل هذا شأنه ، رجل مترع بالعظمة وبالتفوق إلى هذا الحد لا يمكن أن يستهويه التمايز ، ولا يمكن أن يجد راحة نفسه وغبطتها إلا فى البساطة المتناهية ، وفى الحياة « بين » الناس لا « فوق » الناس . .

فهو يجلس حيث انتهى به المجلس . ليس له مكان صدارة يختص به نفسه . وهو ينام حيث يدركه النوم ، فوق الحصير فى داره ، أو فوق الرمال تحت ظل النخيل . . ! ! وهو يأكل ما يجد ، وما يُقيم الأوَد لا غير . . شريحة من اللحم المقدد ، أو شريحة من الخبز مبللة بالزيت ، مُتبّلَة بالملح . . ! !

وهو سعيد ، حين يسمع امرأة ، أو غلاماً . يناديه : يا عمر . .

وهو فى سعادة لو علمها ملوك الأرض لَحسدوه عليها ، حين يرى عجوزاً تحمل مِكْتلا يؤودها حمله . فيتقدم منها ويحمله عنها بعض الطريق ، ويضحك مِلء نفسه ، وهو يسمعها : تقول له شاكرة :

أثابك الله الخير يا بنى . . إنك لَأحَقُّ بالخلافة من عمر . . ! ! !

* * *

ذات ليلة خرج فى جولة من جولاته التى كان يخرج فيها وحيداً ، والناس نيام ليطمئن على قومه ويَبْلُوَ أحوالهم ، وينفُضَ الليل عن حاجاتهم . . !

وعند مَشارف المدينة رأى كوخاً ، ينبعث منه أنين امرأة ، فاقترب يسعى ، ورأى رجلا يجلس بباب الكوخ ، وعلم منه أنه زوج السيدة التى تئن . وعلم أنها تعانى كَرْب المخاض ، وليس معها أحد يُعينها ؛ لأن الرجل وزوجته من البادية وقد حطَّا رِحالهما هنا وحيدين ، غريبين . .

ورجع « عمر » إلى بيته مسرعاً ، وقال لزوجته « أم كلثوم » بنت الإمام على . .

– هل لك فى مَثُوبة ساقها الله إليك . . ؟ ؟

– قالت : خيراً . . ؟

قال : امرأة غريبة تمَخَض ، وليس معها أحد .

قالت : نعَم ، إن شئت . .

وقام فأعد من الزاد والماعون ما تحتاج إليه الوالدة من دقيق وسمن ، ومِزَق ثياب يُلَفُّ فيها الوليد . .

وحمل أمير المؤمنين القِدْرَ على كتف ، والدقيق على كتف ، وقال لزوجته : اتبعينى . .

ويأتيان الكوخ ، وتدخله « أم كلثوم » زوج أمير المؤمنين ، لتساعد المرأة فى مُخاضها . .

أما أمير المؤمنين ، فيجلس خارج الكوخ وينصب الأثافِىَّ ويضع فوقها القدر ، ويوقد تحتها النار . ويُنضج للوالدة طعاماً ، والزوج يَرمُقه شاكراً . . . ولعلَّه كان يحدث نفسه هو الآخر بأن هذا العربى الطيب أولى بالخلافة من « عمر » . . ! !

وفجأة صَدَح فى الكوخ صراخ الوليد . . لقد وضعته أمه بسلام ، وإذا صوت « أم كلثوم » ينطلق من داخل الكوخ عالياً :

– يا أمير المؤمنين ، بَشِّر صاحبك بغلام . . ! !

ويفهق الأعرابى من الدهش ، ويستأخر بعيداً على استحياء ، ويحاول أن ينطق الكلمتين – أمير المؤمنين – ولكن شفتيه لا تقويان على الحركة من فرط ما أفاءته المفاجأة من سعادة ، وطرافة ، وذهول . . ! !

ويلحظ « عمر » كل هذا ، فيشير للرجل : أن ابق مكانك ، لا تُرَعْ . .

ويحمل أمير المؤمنين القِدر . ويقترب من باب الكوخ منادياً زوجته . .

– خذى القدر يا أم كلثوم . وأطعمى الأم وأَشبعيها . .

وتُطعمها « أم كَلثوم » حتى تشبع ، وترد القدر إلى « عمر » بما بقى من طعام ، فيضعها « عمر » بين يدى الأعرابى ، ويقول له :

– كل واشبع ، فإنك قد سهرت طويلا ، وعانيت كثيراً . . .

ثم ينصرف هو وزوجته ، بعد أن يقول للرجل :

– « إذا كان صباح الغد فائتنى بالمدينة ، لآمر لك من بيت المال بما يصلحك ، ولِنفرضَ للوليد حقه » . . ! !

رضى الله عن « عمر » ، وإنه لَحقٌّ ، ما قاله الرسول عنه : « لم أرَ عبقريًّا يَفرِى فَرِيَّه » ، فهو بألمعيته وبصيرته . قد عرف حقيقة السعادة ، وحقيقة العظمة فى دنيانا هذه ، فأخذ منهما بالمكيال الأوفى .

ألا وَربِّ « عمر » . إن مشهداً واحداً كهذا الذى رأيناه لخير مما طلَعت عليه الشمس وغرَبت – من عُروش وتيجان ، وزُخرف وصَلف . . . ! !

أى تواضع وأية بساطة ، وأى حنان ومودة تنساب من نفس هذا الإنسان الذى رفع الله به من قَدْر الحياة . . ؟ !

أين مظاهر السلطان ، حتى المشروع والضرورى منها . . ؟ !

لكن « عمر » لم يكن رجلَ سلطان ، لأنه فوق السلطان . وهو لا يستعير عظمته من شىء خارج نفسه . إنما يَهبُ العظمة لكل ما يقترب منه ويتصل به .

وهو لا يتكلف البساطة ، بل يتنفسها . . ويُوَطِّئ أكنافه فى غبطة للكبير والصغير . . ! !

يمر يوماً فى المدينة بغلمان يلتقطون البلح من أفنية النخل ، فلا يكاد الغلمان يبصرونه حتى يتفرقوا ، ويذهبوا بعيداً ، غير غلام واحد ظل فى مكانه لا يَريم . .

ويقترب منه « عمر » ، فيُباكِرُه الغلام القول :

– « يا أمير المؤمنين ، إن هذا البلح مما ألقته الريح » . . ! !

فيقول له عمر : « أرِنِى أنظُرْ إليه . فإن ما تلقيه الريح لا يخفَى علىَّ »

وينظر البلح ويفحصه ثم يقول للغلام : صدقت . .

وتتهلل أسارير الطفل ، ويقول لأمير المؤمنين فى براءة ،

– « أترى هؤلاء الغلمان الذين هناك ؟ ؟ إنهم ينتظرون أن أذهب وحدى فيغيروا علىَّ ويأخذوا ما معى » . .

ويضحك عمر . ويُرَبِّتُ على كتفه ، ويقول للغلام : امض معى ، وسأبلغك مَأمنَك . . ويأخذ بيده ويسير إلى جانبه حتى يُشارف داره . . . ! ! !

* * *

أكانت بساطته تنبع من مسئوليته ، أم نبعت كل خصائصه المتفوقة من عظمة نفسه . . ؟ ؟

ألاَ مَن شاء أن يرى ما يَسُرُّ الأعين ، ويجعل الأفئدة فى عيد . .

ألا من شاء أن يرى العظمة الإنسانية فى أوج صدقها وبُهاها . .

فليبصر ذلك الإنسان الفارع الطول ، الأصلع الرأس . المنفرج القدمين ، اللابس بردة بها إحدى وعشرون رقعة ، والحامل فى يُسراه دواة ، وفى يمناه قِرطاساً وقلماً . . يقرع أبواب الدور ، ويطلب إلى نساء المؤمنين اللواتى غاب أزواجهن فى الثغور وفى ميادين الجهاد أن يجلسن وراء الأبواب : ويُملين عليه رسائلهن إلى الأزواج ، فإن البريد على وَشْكِ أن يرحل ويسافر . . ! !

أو فليبصر ذلك الإنسانَ نفسه ، أميرَ المؤمنين « عمر » ، والظافر بالدنيا العريضة – دنيا الروم وفارس ، يقرع الأبواب نفسها ، وينادى الزوجات

اللائى غاب أزواجهن :

– « اذكرن لى حاجاتكن ، ومن كانت لها فى السوق حاجة ، فلتذكُرها لى ، أو لترسل معى خادمها إن كان لها خادم ، فإنى أخاف أن تُخدعن فى البيع والشراء » . . ! !

ثم يمضى إلى السوق ووراءه سِرْب طويل من الخدم ، وهناك يشترى بنفسه ، ويضع الحاجات فى السِّلال بيده . . ! !

أصحيح أن هذا الرجل عاش على ظهر الأرض يوماً ، وكان أميراً للمؤمنين ، وكان يحيا بهذه البساطة ، ويَعدل هذا العدل ، ويُخْبِتُ ذلك الإخبات . . ؟ ؟ ! !

أصحيح أن رجلا ، اسمه « عمر » ، كان للمسلمين خليفة وإماماً . وفتح الله له فتحاً مبيناً ، هابته مُلوك الأرض ، وتدحرج عند قدميه طُغاتها وجَرت بين يديه كالأنهار ، الأموال والكنوز – يزوره وفد العراق يوماً ومعه الأحنف بن قيس ، فيُفاجأون به والحر شديد ، والصيف قائظ ، منهمكاً فى تطبيب بعير من إبل الصَّدقة يطليه بالقَطِران – ثم لا يكاد يرى ضيوفه ، وفيهم الأحنف حتى يناديه :

– « ضع ثيابك يا أحنف ، وهَلُمَّ فأَعِنْ أمير المؤمنين على هذا البعير فإنه من إبل الصدقة ، وفيه حق للأمّة ، والمسكين ، واليتيم » . .

فيقول له رجل من الوفد ، وقد أذهلته المفاجأة :

– « يغفر الله لك يا أمير المؤمنين ، إن عبداً من عبيد الصدقة يكفيك هذا » . .

فيجيبه عمر : « وأىُّ عبدٍ أعبدُ منى ومن الأحنف . . ؟ » ثم يستأنف تطبيبه للبعير . . ! ! !

أصحيح هذا . . . ؟ ؟

من حسن حظ البشرية أنه صحيح ، وأن لها من « عمر » مَعِيناً لا يَنضُبُ من الغبطة والعظمة والأمل . .

من حسن حظ البشرية ، أن « عمر » واحد منها ، لتعلم أنها تنطوى على إمكانات الكمال الذى تصبو إليه وتريده ، وأنه ليس عليها إلا أن تجلُوَ مواهبها ، وتصقُل مَزاياها ومَرَاياها ، فإذا هى تخرج الخبء ، وتعطى الثمر ، وتنجب العظمة والكمال . . ! !

* * *

إن بساطة عمر تكشف الحماقة الكبرى التى يخوض فيها كل من يأخذه الزهو والصَّلف بمنصب يناله ، أو نصر يبلغه ، أو ثروة يجمعها . فما الصلف والتكلف إلا عبء ثقيل يحمله المخدوعون به ، ويصطلون بعذابه وهم لا يشعرون . .

أما البساطة الصادقة التى عاشها « عمر » ، فتلك هى السعادة حقًّا ، السعادة التى يتمثل فيها رجوع النفس إلى جوهرها ، وتفوقها على كل خلابة وغُرور . . .

سبحانه ، ربُّ عمر . . ! ! !

لقد ألهمه رشده ، ووقاه شرَّ نفسه . ومَنَحه من استقامة الشخصية وجلالها ما جعله نسيج وحده ، لا فى بلده وحده ، ولا فى عصره وحده ، بل ملءَ كل مكان ، وعَبر الزمان ، جميع الزمان . . ! !

حيثما نلقاه ، نلقى بطولة روحه ، نلقى بساطته وإخلاصه وصدقه . حتى ليتركنا فى حيرة ، كيف توفر لهذا الرجل ، كل هذا القدر من الدَّعَة ،

والأمانة ، والبساطة ، وهو الذى زادت أعداد الجند فى جيوشه على مئات الأُلوف ، وأصبحت الأموال تتكدَّس بين يديه فى أفناء المدينة أكواماً وتِلالا . وأخذت الوفود من أرجاء الأرض القريبة والبعيدة ، تسعى إليه طالبةً الأَمْن ، وأحاطت به قلوب الشعوب التى حررها من ظلم الروم ، وغطرسة الفرس . . وأحاطت به فى هُيام وحب وفتون يسلُب الحليمَ لُبَّه . . ! !

كل قوى الإغراء بالزهو ، والحض على الاستعلاء . ثم لا نجد أَثارةً — أدنى أثارة — من زهو أو استعلاء . بل على العكس نجد قِمماً تَزْحَمُ الأفق . . . قمة الزهد ، وقمة العدل ، وقمة الورع ، وقمة البساطة والتواضع . . . شَوامخ يعلى الرجل بناءها بفضائل نفسه ، وبطولة روحه ، واستقامة نهجه . . ؟ ؟

انظروا . . .

ها هو ذا يقترب من مشارف الشام ، وقد خرج أهلها لاستقباله ، فيلقاهم رجل قد امتطى جملا يجلس فوق وطاء من صوف خشن ، وقد دَلَّى رجلاه من شعبتى رَحله ، فلا وِجافَ ، ولا رِكاب ، يلبس قميصاً من قطن ، كثير الثقوب ، كثير الرقاع . . ! ! !

ويقبل الناس على الرجل يسألونه : أين أمير المؤمنين . . ؟ ؟

— ألم تلق موكبه فى الطريق ؟ ؟

فيجيبهم الرجل باسماً « أمير المؤمنين أمامكم » فيُغِذّون السير إلى أمام . . حتى يأتيهم الخبر من ورائهم بعد حين : أن أمير المؤمنين قد وصل « أيلة » ونزل بها ، فيعودون مهرولين . .

ويدخلون على أمير المؤمنين حيث كان يجلس مع الناس وتكاد تصعقهم المفاجأة ، فما أمير المؤمنين إلا الرجل الذى لقيهم يمتطى جملا والذى سألوه عن أمير المؤمنين ، فقال إنه أمامكم . . ! !

ويؤتى له ببرْذَون مُطَهّم عليه سرج جميل ، ورَحْل أنيق ، فيرفض ركوبه ويقول : نَحُّوا عنى هذا الشيطان . . ! !

فإذا قيل له : إن هذه بلاد لا تصلح بها الإبل ، يركب البرذَوْن ولكن بعد أن يجرده من كل حِلْية وزُخرف . وبعد أن يُلقى عن ظهره بالسرج الأنيق ، والرحل المزركش ، ويضع مكانهما ، الكساء من الصوف الذى كان يتخذه وطاء له إذا ركب ، ووسادة ينام عليها إذا نزل . . ! !

وفى رحلته الأولى إلى بلاد الشام يلقاه على أبواب مدينة القدس قواد جيشه وأمراؤه ، ممتطين صهوات الخيل ، وقد تمنطقوا بحلل من الديباج . .

فلا يكاد « عمر » يرى المشهد ، حتى ينزل من فوق دابته سريعاً ، ويده على الأرض تأخذ من طوبها وحَصاها ، ويرى الأمراء والقواد ثم يقبل عليهم قائلا :

« سُرعان ما فُتنتم ؟ أفى هذا الزى تستقبلون عمر . . . ؟ سرعان ما ندَّت بكم البِطنة والترف ، وأنتم الذين لم تشبعوا إلا من عَامَين » . . . ! !

هذا رجل لم تكن البساطة ، والتواضع ، هواية له ، بل كانت دينا ، وفطرة ، وأمانة . .

إنه يلتقى ذات ليلة بسيدة تسير وحدها فى المدينة . حاملة قربة كبيرة فيقترب منها ويسألها عن أمرها ، فيعلم أنها ذات عيال ، وليس لها خادم ، وأنها تنتظر حين يرخى الليل أستاره ، فتخرج لتملأ قربتها ماء . فيأخذ منها القربة ويحملها عنها ، وهى لا تعرف من هو . ؟ حتى إذا بلغ دارها ، قال وهو يناولها قربة الماء :

– « إذا أصبح صباح غد ؛ فاقصدى عمر ، يرتب لك خادماً ،

قالت : إن عمر كثير شغله ، وأين أجده . . ؟

قال : اغْدِى عليه ، وستجدينه إن شاء الله تعالى . .

وتعمل المرأة بمشورة الرجل الطيب ، لكنها لا تكاد تذهب إلى عمر ، وتقف بين يديه حتى تصيح مبهورة : أنت هو إذن . . . ؟ !

ويضحك أمير المؤمنين . ثم يأمر لها بخادم ونفقة . .

* * *

لا ريب أن أمير المؤمنين لو خير بين هذه البساطة الصادقة ، وكل ما فى الدنيا من زينة وزخرف ، لما آثر على نعمة التواضع والبساطة شيئا . .

وإن الرجل الذى عاش حياته متفوقاً ، وكانت أيامه فوق الأرض موكباً مستمرًّا من الانتصارات والسعادة – منذ كان فتى يصارع الفتيان فى سوق عُكاظ ، فيظفر بهم وينتصر عليهم . .

إلى أن أسلم . فكان إسلامه فتحاً . . ثم هاجر ، فكانت هجرته نصراً . .

إلى أن صار أميراً للمؤمنين تتهاوى تحت ضرباته أركان العالم القديم كله . . ! !

هذا الرجل ، صاحب هذه الحياة الحافلة دوماً ، الظافرة أبداً . . كان أروع انتصاراته وأبهاها وأبقاها ، هذا الورع الذكى الجليل الذى أعطى دنيا الناس كافة ، ودنيا الحكام خاصة ، قدوة لا تَبلَى ، ولا هى يوماً بنَا صِلَة . . . ! !

قدوة تتمثل فى عاهل بركت الدنيا على عتبة داره مُثقلَة بالمغانم والطيبات ، فسرَّحها سِرَاحاً جميلا ، وساقها إلى الناس . ينثر فيهم طيباتها ويَدرأ عنهم مُضِلاَّتِها . . حتى إذا نفض يديه من علائق هذا المتاع ، استأنف سيره ومَسراه ، مُهرولا فى فترة الظهيرة وراء بعير من أموال الأمة يخشى عليه

الضياع . . أو مُنحنياً فوق قِدر ينضج فيه طعمة طيبة لامرأة غريبة أدركها كَرب المخاض . . أو مستقبلا فوق الرمال وتحت ظل النخيل ، وفداً من وفود الدنيا التى تقصد المدينة تباعاً ، باحثة لأممها ودولها عن مكان فى العالم الجديد الذى ينسقه « عمر » ويبنيه . . أو صاعداً المنبر يخطب المسلمين ويذكرهم بأيام الله فى بردة تزدان بإحدى وعشرين رقعة أوتزيد . . ! ! ! !

* * *

وبعد :

أبقى شىء يقال . . ؟

أستغفر الله . . بل هل قلنا شيئاً من الكثير ، الكثير ، الذى يمكن أن يقال . ؟ ؟

ألَا حَسْبنا تلك اللحظات اليانعة الممتلئة التى عشناها معه ...

ولْنقنع قبل أن تتقطع منا الأنفاس ، بتلك الخطى المحبورة التى تابَعْنا بها - قليلا من الوقت - رجُلاً يسابق الزمان . . ! ! !

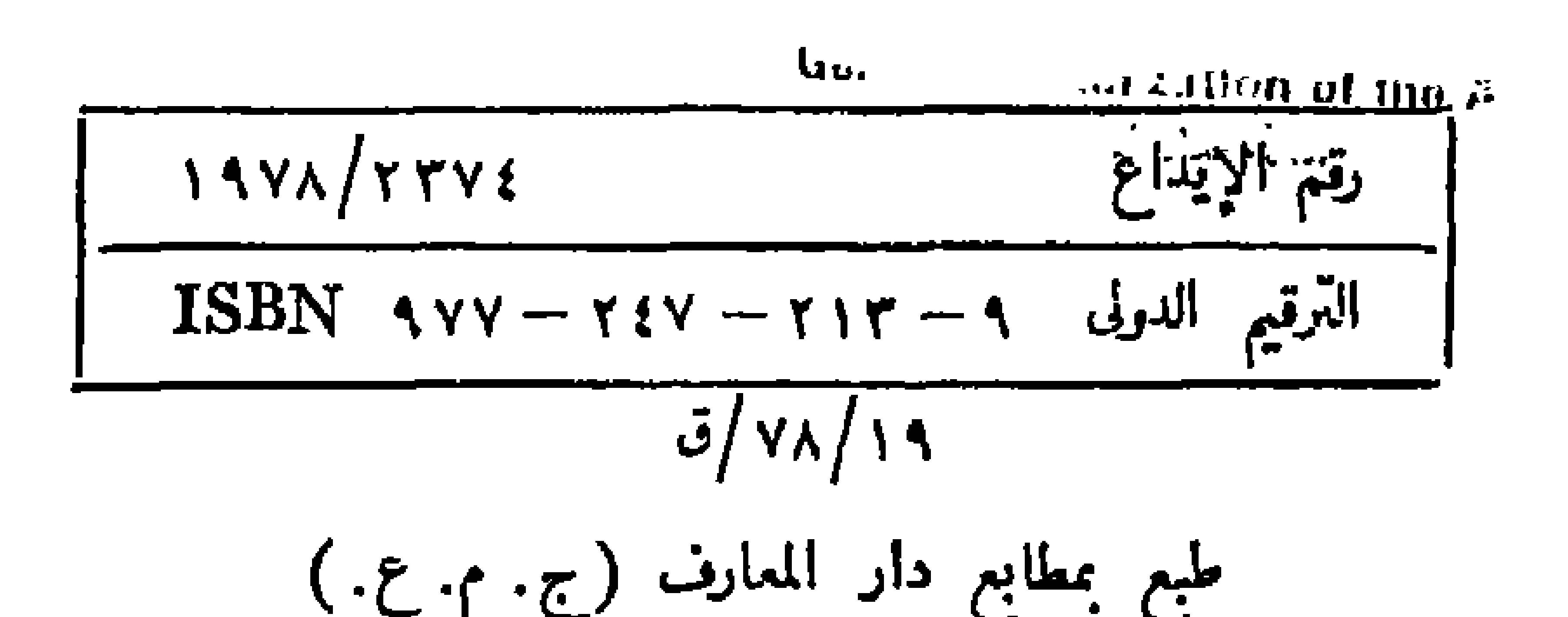
وإذا أردنا أن نُعبِّر عن انبهارنا البالغ أَشُدَّه ، فلنوفر على أنفسنا عناء مالاَ يُطمع فيه ولا يُقدَر عليه ، ولْتَسعْنا فى هذا الموطن كلمة عبد الله بن مسعود :

- لله دَرُّ ابن الخطاب . . أىُّ امرِئٍ كان . . ؟ ؟ ! !

* * *

كتب للمؤلف

١ – من هنا .. نبدأ
٢ – مواطنون .. لا رعايا
٣ – الديمقراطية ، أبداً
٤ – الدين للشعب
٥ – هذا .. أو الطوفان
٦ – لكى لا تحرثوا فى البحر
٧ – الله ، والحرية : ثلاثة أجزاء
٨ – معاً على الطريق – محمد والمسيح
٩ – إنه الإنسان
١٠ – أفكار فى القمة
١١ – نحن البشر
١٢ – إنسانيات محمد
١٣ – الوصايا العشر
١٤ – بين يدى عمر
١٥ – فى البدء كان الكلمة
١٦ – كما تحدث القرآن
١٧ – وجاء أبو بكر
١٨ – مع الضمير الإنسانى فى مسيره ومصيره
١٩ – كما تحدث الرسول
٢٠ – أزمة الحرية فى عالمنا
٢١ – رجال حول الرسول
٢٢ – فى رحاب على
٢٣ – وداعاً ، يا عثمان
٢٤ – أبناء الرسول فى كربلاء
٢٥ – معجزة الإسلام: عمر بن عبد العزيز
٢٦ – عشرة أيام فى حياة الرسول
٢٧ – والموعد الله



رقم الإيداع	١٩٧٨/٢٣٧٤
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ – ٢٤٧ – ٢١٣ – ٩

١٩/٧٨/ق

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

هذا الكتاب

عن أمير المؤمنين « عمر » . .

الناسك ، الذى تفجَّر نُسُكه حركة وذكاء ، وعملا وبناء . .

المعلم ، الذى صحَّح مفاهيم الحياة ، وأفرغ عليها نوراً من روحه . وكساها عظَمةً من سلوكه ، وكان للمتقين إماماً . .

الحاكم ، الذى إذا ذُكِرَ رؤساء الدول والحكومات من فجر التاريخ الإنسانى إلى يوم الناس هذا -- كان أعظمهم وأبرَّهم وأزكاهم فى غير مُبالغة .

و« عمر » من الطراز الذى يغمُرك وأنت تقرأ تاريخه المكتوب كل الإجلال وكل الحب اللذين يَغْمُرَانك وأنت تُجالس ذاته وشخصه . .

والمشهد المسطور من تاريخه ، لايكاد يختلف عن المشهد الحىّ إلا فى غياب البطل عن حاسَّة البصر

أجَلْ ، عن حَاسَّةِ البصر وحدها . أمَّا البصائر ، فترى وهى تطالع سيرة « عمر » أنها تُعايشه وتُجالِسُه ، وترىَ رأْىَ العين جلائل الأعمال ، ومَناسِكَ البطولات ، التى يتناولها بيد أستاذ عظيم . جدّ عظيم . .

إنه مَنارَة الله فى الدنيا ، وهديته إلى الناس وإلى الحياة .



٦٠ قرشاً